الإنسان[١] : ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيّبات وفضلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا ﴾ . وجاء فى التّنبيه إلى بعض نعم الله تعالى على جنس الإنسان وتنبيهه على طريقى الخير والشّرّ كى يسلك الأوّل ويهجر الآخر قوله تعالى[٢] : ﴿ ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين ﴾ وجاء فى المعنى ذاته قوله تعالى [٣] : ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا . إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً ﴾ .

وبالإضافة إلى تكريم الله تعالى جنس الإنسان للدّرجة الّتى فضّله الله تعالى معها على سائر مخلوقات هذا الكوكب الأرضىّ ، بل إنّ من العلماء من ذهب إلى كون هذا الإنسان الصّالح يستطيع بعونٍ من الله تعالى وفضل أن يظلّ فى رقيّه وسموّه إلى المستوى الّذى يصحّ معه أن يتقدّم الملائكة المفردى الإرادة الّذين لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وإنّ حجّة هذا الفريق من العلماء فى تفضيل الإنسان كونه ثنائىّ الإرادة يصحّ أن يصدر عنه كلّ من الخير والشّرّ . فإذا لم يصدر من هذا الإنسان سوى الخير ، المأمور به ، كان فى هذه الخيريّة المطلقة مبرّر للقول بأنّه يصحّ أن يتقدّم من لا يصدر منه إلاّ الخير وحده ، وهم الملائكة الّذين لا يعصون الله تعالى ما أمرهم والّذين يفعلون ما يؤمرون . إنّه بالإضافة إلى تكريم الله تعالى جنس الإنسان ، فإنّ الله سبحانه وتعالى يبعث أنبياءه ، ويرسل رسله ، كلّما حاد جنس الإنسان عن جادّة الصّواب ، وقد قال عزّ من قائل[٤] : ﴿ وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا ﴾ وتظلّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىء تلاحق جنس الإنسان الظّلوم لنفسه ، الجهول بحقيقة قدره وبما ينفعه . قال تعالى :[٥] : ﴿ كان النّاس أمّةً واحدةً فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلاّ الّذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم ، فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾ وجاء فى نعمة إرسال النّبيّين الّتى تُوّجت بإرسال

---

(١) سورة الإسراء . ٧٠
(٢) سورة البلد ٨ — ١٠
(٣) سورة الدّهر ٢ ، ٣
(٤) سورة الإسراء ١٥
(٥) سورة البقرة ٢١٣

خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبد الله ﷺ وبإنزال خاتم الكتب السّماوية وأشرفها عليه ، قوله عزّ من قائل[١] ﴿ إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنّبيّين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلّم الله موسى تكليما . رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكونَ للنّاس على الله حجّةٌ بعد الرُّسل ، وكان الله عزيزاً حكيما . لٰكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيدا ﴾ .

إنّ كلّ هذه النّعم الّتى امتنّ الله تعالى بها على عباده والّتى لم يسلب الكافرين شيئاً منها ، لم يستفد هؤلاء المصرّون على الكفر شيئاً منها . وقد سبق إلى علمه عزّ وجلّ ، الّذى ليس للزّمن علاقةٌ به مطلقاً ، موقف هؤلاء الكافرين المصرّين على الكفر من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد . فاستحقّ أولئك الكافرون بناءً على موقفهم المناوئ للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد والّذى سبق إليه علمه عزّ وجلّ أن يدخلوا النّار وبئس القرار ، وأن يعبرّ عن هذا الموقف الّذى يقفونه والّذى سيستحقّون عليه أليم العذاب فى مثل قوله عزّ من قائل[٢] ﴿ إنّ الّذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ وأن يعبرّ عنه بطريقةٍ يفهم معها اختلاف النّاس طرائق قددا ، واستحقاق كافرى الإنس والجنّ أن تملأ بهم جهنّم ، كفاء كفرهم وإصرارهم على الكفر ، وانصرافهم عن كلّ دعوة إلى الخير ، وتعطيلهم نعم الله تعالى عليهم . إنّ كلّ هذه التّصرّفات السّيّئة الّتى لم يرض الله تعالى عنها و لم يأمر بها قد سبق إليها علم الله تعالى . والله سبحانه وتعالى لم يعاقب هؤلاء الكافرين بسابق علمه بموقفهم المناوئ للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد وإنّما بأعمالهم الّتى قاموا بها فعلا . جاء فى سورة هود[٣] قوله عزّ من قائل : ﴿ وما كان رَبّك لُيهلِك القرى بظُلْم وأهلُها مصلحون . ولو شاء ربّك لجعل النّاس أمّةً واحدةً ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك . ولذلك خلقهم ، وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنّم من الجِنّة والنّاس

---

(١) سورة النّساء ١٦٣ — ١٦٦ (٢) سورة البقرة ٦

(٣) سورة هود ١١٧ — ١١٩

أجمعين ﴾ وقال تعالى[١] : ﴿ لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ إنّ الّذين حقّت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كلّ آية حتّى يروا العذاب الأليم ﴾ .

جاء عن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما فى معنى الآية الكريمة[٣] : « كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع النّاس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله جلّ ثناؤه أنّه لا يؤمن إلاّ من سبق له من الله السّعادة فى الذّكر الأوّل ، ولا يضلّ إلاّ من سبق له من الله الشّقاء فى الذّكر الأوّل » .

الآيــة رقــم (٧)

إذا كانت أولى الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن الكافرين ، قد بيّنت الأسباب الّتى من أجلها يستوى إنذار المصطفى ﷺ وعدم إنذاره لهم ، وهى أسبابٌ يتحمّلون هم أنفسهم وزرها وحدهم دون سواهم ، فإنّ ثانية الآيتين الكريمتين تعمّق هذا المعنى ، وتبيّن فى حقّ الكافرين معنى مقابلاً لفضل الله تعالى على المؤمنين المتّقين المهتدين الّذين زادهم الله تعالى هدًى إلى هداهم . إنّ الكافرين الّذين أصرّوا على الكفر والضّلال زادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم وذلك فى مقابل الهدى الّذى كان من نصيب المؤمنين المتّقين فى القسم السّابق . ومن نصيب هؤلاء الكافرين كذلك العذاب العظيم وذلك فى مقابل الفلاح الّذى هو من نصيب المؤمنين المتّقين . قال تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيم ﴾ .

إنّ زيادة الله تعالى الكافرين ضلالاً إلى ضلالهم نتبيّنه فى ختمه جلّ وعلا على قلوبهم وعلى أسماعهم . ووضعه جلّ وعلا غطاءً على أبصارهم . ولهم عذابٌ عظيم فى الدّنيا

---

(١) سورة يس ٧ (٢) سورة يونس ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) تفسير الطّبرى ١/٨٤ وتفسير ابن كثير ١/٤٥

والآخرة . فكيف تمثّل ضلال القوم ابتداءً ؟ بتدبرّ آى الذّكر الحكيم نستطيع أن نتبيّن حرص هؤلاء الكافرين على عدم سماع القرآن الكريم سماعاً مجرّدا ، خوفاً من أن يقودهم ذلك ، دون وعيٍ منهم إلى مرحلة السّماع التّالية ، وهى مرحلة السّماع الواعى المتدبّر . فالمعروف أنّ السّمع نوعان وعلى درجتين . النّوع الأوّل هو السّماع المجرّد الّذى لا يرتبط به شيءٌ من الفهم . والنّوع الثّانى هو السّماع الواعى المتدبّر الّذى يرتبط به الفهم والتّدبّر . وليس بخاف أنّ ثانى النّوعين أهمهما ، وأنّ النّوع الأوّل ضرورىٌّ من أجل الوصول إلى النوع الثّانى وإلى درجته العالية الرّفيعة . إنّ الكافرين حريصون على الابتعاد عن مجرّد الانسياق إلى مرحلة النّوع الأوّل ودرجته فكيف بالنّوع الثّانى ودرجته . جاء فى سورة فصّلت[1] قولُه تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنّةٍ مِمّا تدعونا إليه وفى آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجابٌ فاعمل إنّنا عاملون ﴾ . وقولُه تعالى[2] : ﴿ وقال الّذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلّكم تغْلِبون . فلنذيقنّ الّذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينّهم أسوأ الّذى كانوا يعملون . ذلك جزاء أعداء الله النّار لهم فيها دار الخلد جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ . وجاء فى سورة المدّثّر[3] قوله تعالى ﴿ فما لهم عن التّذكرة معرضين . كأنّهم حُمُرٌ مستنفِرَة ، فَرّتْ من قسورة ﴾ فكفّار مكّة ومن لفّ لفّهم من الصّادّين عن سبيل الله تعالى كأنّهم حينما يسمعون آى الذّكر الحكيم تلك الحمر الوحشيّة الّتى فرّت من الأسد الشّديدِ الفتك بها بطبعه ، الشّديدةِ الخوفِ منه والفَرَقِ بطبعها . إلى غير ذلك من آيات القرآن الكريم الّتى تبيّن حرْصَ الكافرين على عدم سماع القرآن الكريم يرتّل ترتيلا ، بل حرص الكافرين على عدم سماع كلِّ شخصٍ القرآن الكريم خوفاً من أن يحمله القرآن الكريم على الدّخول فى الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده . وإنّ ربّ العزّة ليرشد حبيبه المصطفى ﷺ إلى الطّريقة المُثْلى الّتى يتلو فيها القرآن الكريم بالمسجد الحرام قبل الهجرة . إنّها طريقةٌ وسطى بين الجهر والهمس تتيح للمؤمنين المضطهدين ، وللرّاغبين فى سماع دعوة الحقّ أن يسمعوا القرآن الكريم من فيه ﷺ

---

(١) الآية ٥ (٢) سورة فصّلت ٢٦ — ٢٨

(٣) الآيات ٤٩ — ٥١

يرتّل ترتيلا دون أن ينالهم أدنى أذًى من الكافرين . إنّ الجهر بتلاوة القرآن الكريم يعرّض القرآن الكريم والرّسول العظيم والمؤمنين المتّقين والرّاغبين فى سماع دعوة الحقّ لأذى الكافرين . وإنّ المخافتة بتلاوة القرآن الكريم والإسرار بها لا يتحقّق بهما النّفع المرجوّ لأنّ الرّاغبين فى السّماع لا يتحقّق لهم بالهمس شيءٌمن ذلك . جاء فى هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الإسراء[١] : ﴿ قُلِ ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن أيّاً مّا تدعو فله الأسماء الحُسْنى . ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا . وقل الحمد لله الّذى لم يتّخذ ولداً و لم يكن له شريكٌ فى الملك و لم يكن له ولىٌّ من الذّلّ وكبّره تكبيرا ﴾ .

وبتأمّلنا للآية الكريمة يتبيّن أنّ الختم من نصيب القلوب والأسماع وأنّ الغشاوة من نصيب الأبصار . فما معنى الختم ؟ أصل الختم الطّبع . والخاتم هو الطّابع[٢] والختم مصدر ختمت الشّىء ختماً فهو مختوم ومختّم . شدّد للمبالغة . ومعناه التغطية على الشّىء والاستيثاق منه حتّى لا يدخله شىء . ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك حتّى لا يوصل إلى ما فيه ولا يوضع فيه غير ما فيه[٣] والختم والكتم أخوان لأنّ فى الاستيثاق من الشّىء بضرب الخاتم عليه كتماً له وتغطية ، لئلاّ يتوصّل إليه ولا يطّلع عليه[٤]

« وقال أهل المعانى : وصف الله تعالى قلوب الكفّار بعشرة أوصاف ، بالختم والطّبع والضّيق والمرض والرّيْن والموت والقساوة والانصراف والحميّة والإنكار . فقال فى الإنكار[٥] : قلوبهم منكرةٌ وهم مستكبرون . وقال فى الحميّة[٦] : إذ جعل الّذين كفروا فى قلوبهم الحميّة . وقال فى الانصراف[٧] : ثمّ انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنّهم قومٌ لا يفقهون . وقال فى القساوة[٨] فويلٌ للقاسية قلوبُهُمْ مِنْ ذكر الله . وقال[٩] : ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك . وقال فى الموت[١٠] : أو مَنْ كان مَيْتاً فأحييناه .

---

(١) الآية ١١٠ ، ١١١
(٢) تفسير الطّبرى ٨٦/١
(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٦١
(٤) الكشاف ١١٩/١
(٥) سورة النحل ٢٢
(٦) سورة الفتح ٢٦
(٧) سورة التّوبة ١٢٧
(٨) سورة الزُّمر ٢٢
(٩) سورة البقرة ٧٤
(١٠) سورة الأنعام ١٢٢

وقال[١] : ﴿ إنّما يستجيب الّذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ﴾ . وقال فى الرَّين[٢] : ﴿ كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ . وقال فى المرض[٣] : ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ . وقال فى الضّيق[٤] : ﴿ ومَنْ يُرِدْ أن يُضِلّه يجعل صدره ضيّقاً حَرَجا ﴾ . وقال فى الطَّبع[٥] : ﴿ وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ . وقال[٦] : ﴿ بل طبع عليها بكفرهم ﴾ . وقال فى الختم[٧] : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾[٨] وكنى بالختم على القلوب عن كونها لا تقبل شيئاً من الحقّ ولا تعيه لإعراضها عنه . فاستعار الشّىء المحسوس للشّىء المعقول . أو مثّل القلب بالوعاء الّذى ختم عليه صَوْناً لما فيه ومنعاً لغيره من الدّخول إليه . والأوّل مجاز الاستعارة . والثّانى مجاز التّمثيل[٩] وبهذا يتبيّن أنّ الختم يكون محسوساً ويكون معنىً كما فى هذه الآية . فالختم على القلوب عدم الوعى عن الحقّ سبحانه مفهومَ مخاطباته والفكر فى آياته[١٠] .

وما معنى القلب ؟ القلب : اللّحمة الصّنوبريّة المعروفة[١١] والقلب للإنسان وغيره . وخالص كلّ شىءٍ وأشرفه قلبه . فالقلب موضع الفكر[١٢] وكنى به فى القرآن وغيره عن العقل . وأطلق أيضاً على لبّ كلّ شىءٍ وخالصه[١٣] وهو فى الأصل مصدر قلبت الشّىء أقلبه قلبا ، إذا رددته على بداءته . وقلبت الإناء رددته على وجهه . ثمّ نقل هذا اللّفظ فسمّى به هذا العضو الّذى هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه وتردّدها عليه كما قيل :

ما سُمِّىَ القلب إلاّ من تقلّبه فاحذر على القلب من قَلْبٍ وتحويل

ثم لمّا نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشّريف . التزمت فيه تفخيم قافه ،

---

(١) سورة الأنعام ٣٦
(٢) سورة المطفّفين ١٤
(٣) سورة البقرة ١٠
(٤) سورة الأنعام ١٢٥
(٥) سورة التّوبة ٨٧
(٦) سورة النّساء ١٥٥
(٧) سورة البقرة ٧
(٨) تفسير القرطبى ص ١٦٢
(٩) البحر المحيط ٤٨/١
(١٠) تفسير القرطبىّ ١٦٢
(١١) البحر المحيط ٤٦/١
(١٢) تفسير القرطبىّ ص ١٦٣
(١٣) البحر المحيط ٤٦/١

تفريقاً بينه وبين أصله . روى ابن ماجة عن أبى موسى الأشعرىّ عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : مَثَلُ القلب ريشةٌ تقلّبها الرّياح بفلاة . ولهذا المعنى كان عليه الصّلاة والسّلام يقول : اللّٰهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك . فإذا كان النّبىّ ﷺ يقول مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك ، اقتداءً به . قال الله تعالى : ﴿ واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه ﴾[١] .

والجوارح وإن كانت تابعةً للقلب ، فقد يتأثّر القلب — وإن كان رئيسها وملكها — بأعمالها للارتباط الّذى بين الظّاهر والباطن . قال ﷺ : إنّ الرّجل ليصدق فتنكت فى قلبه نكتة بيضاء . وإنّ الرّجل ليكذب الكِذْبة فيسود قلبه[٢]. عن الأعمش قال أرانا مجاهد بيده فقال : كانوا يَرَوْن أنّ القلب فى مثل هذا ، يعنى الكفّ . فإذا أذنب العبد ذنباً ضمّ منه وقال بإصبعه الخِنْصِرَ[٣] هكذا . فإذا أذنب ضمّ وقال بإصبع أخرى هكذا حتّى ضمّ أصابعه كلّها . قال : ثمّ يطبع عليه بطابع . قال مجاهد : وكانوا يرون أنّ ذلك الرَّيْن[٤] وكان مجاهد يقول : الرّان أيسر من الطّبع . والطّبع أيسر من الأقفال . والأقفال أشدّ ذلك كلّه[٥] وفى حديث حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تُعْرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأىّ قلبٍ أُشربها نُكِتَ نكتة سوداء . وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتّى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصّفا ، فلا تضرّه فتنة ما دامت السّماوات والأرض . والآخر أسود مربادّ كالكوز مجخياً[٦] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكرا ، إلاّ ما أشرب من هواه . وذكر الحديث[٧] .

والقلب قد يعبرّ عنه بالفؤاد والصّدر . قال الله تعالى : ﴿ كذلك لنثبّت به فؤادك ﴾[٨] وقال : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ يعنى فى الموضعين قلبك . وقد يعبّر به

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٦٣ والجزئية الكريمة من سورة الأنفال الآية ٢٤

(٢) تفسير القرطبىّ ص ١٦٤

(٣) الخنصر بكسر الخاء وبكسر الصّاد وفتحها الإصبع الصّغرى .

(٤) تفسير الطّبرى ١/٨٧ وتفسير ابن كثير ١/٤٥

(٥) تفسير الطّبرىّ ١/٨٧ وتفسير ابن كثير ١/٤٥

(٦) مجخياً يعنى مائلا . القرطبى ص ١٦٥ .

(٧) تفسير القرطبى ١٦٤ - (٨) سورة الفرقان ٣٢ .

عن العقل . قال الله تعال[١] : ﴿ إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ . أى عقل . لأنّ القلب محلّ العقل فى قول الأكثرين . والفؤاد محلّ القلب . والصّدر محلّ الفؤاد والله أعلم[٢] .

والغشاوة بإجماع العلماء بمعنى الغطاء[٣] فِعالة من غشّاه إذا غطّاه . وهذا البناء لما يشتمل على الشّىء كالعِصابة والعِمامة[٤] .

وللعلماء اجتهادات لطيفة بشأن لفظة العذاب من الوجهة اللّغويّة . يقول أبو حيّان[٥] مثلاً : « والعذاب أصله الاستمرار . ثمّ اتّسع فيه فسمّى به كلّ استمرار ألم . واشتقّوا منه فقالوا : عذّبته أى داومت عليه الألم . وقد جَعَلَ النّاس بينه وبين العذب الّذى هو الماء الحلو وبين عَذبَ الفرس ، استمرّ عطشه ، قدراً مشتركاً وهو الاستمرار ، وإن اختلف متعلّق الاستمرار . وقال الخليل : أصله المنع . يقال : عذب الفرس امتنع من العلف » ويقول الزمخشرى[٦] : « والعذاب مثل النّكال بناءً ومعنى . لأنّك تقول : أَعْذَب عن الشىء إذا أمسك عنه . كما تقول : نكل عنه . ومنه العَذْب ، لأنّه يقمع العطش ويردعه بخلاف المِلْح فإنّه يزيده ..... ثمّ اتّسع فيه فسمّى كلّ ألم فادح عذاب ، وإذا لم يكن نكالاً أى عقاباً يرتدع به الجانى عن المعاودة » وإذا كان أبو حيّان قد لمح فى الأصل اللّغوىّ معنى الاستمرار ،وكان الزّمخشرىّ قد لمح فى الأصل ما لمحه الخليل من المنع . فإنّ القرطبىّ الّذى له يدٌ طولى فى هذا الشأن لمح فى الأصل المعنى الّذى لمحه الخليل . يقول[٧] : « والعذاب مثل الضّرب بالسّوط والحرق بالنار والقطع بالحديد . إلى غير ذلك ممّا يؤلم الإنسان . وفى التنزيل[٨] : وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين . وهو مشتقّ من الحبس والمنع . يقال فى اللّغة : أَعْذِبه عن كذا أى أَحْبِسْه

---

(١) سورة ق ٣٧ (٢) تفسير القرطبى ص ١٦٥

(٣) تفسير القرطبى ص ١٦٦ والجلالين والكشّاف ١١٩/١ والبحر المحيط ٤٦/١ وتفسير ابن كثير ٤٦/١ وتفسير الطبرى ٨٩/١

(٤) الكشاف ١١٩/١ (٥) البحر المحيط ٤٦/١

(٦) الكشاف ١٢٦/١ (٧) تفسير القرطبى ص ١٦٧

(٨) سورة النّور ٢

وأمْنعه . ومنه سُمِّيَ عذوبة الماء لأنّها قد أُعْذِبَتْ . واسْتُعْذِبَ بالحبس فى الوعاء ليصفو ويفارقَه ما خالطه[١] ومنه قول علىّ رضى الله عنه : أعذبوا نساءكم عن الخروج أى احبسوهنّ . وعنه رضى الله عنه وقد شيّع سريّة فقال : أَعْذِبوا عن ذكر النّساء فإنّ ذلك يكسركم عن الغزو . وكلّ من منعته شيئاً فقد أعذبته . وفى المثل : لَأُلْجمنّك لجاماً مُعْذِبا ، أى مانعا عن ركوب النّاس . ويقال : أعذب أى امتنع . وأعذب غيره فهو لازمٌ ومتعدّ . فسمّى العذاب عذاباً لأنّ صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها » .

وللعلماء كذلك اجتهادٌ لطيف بشأن الفرق بين العظيم والكبير . يقول الزّمخشرىّ مثلا[٢] : « والفرق بين العظيم والكبير أنّ العظيم نقيض الحقير . والكبير نقيض الصّغير . فكان العظيم فوق الكبير . كما أنّ الحقير دون الصّغير . ويستعملان فى الجثث والأحداث جميعاً . تقول : رجلٌ عظيم وكبير ، تريد جثّته أو خطره » .

وبعد هذه الجولة الواسعة مع بعض ألفاظ الآية الكريمة من الوجهة اللّغويّة ، نتحوّل إلى الوجهة المعنويّة . وإنّ ثمّة مجموعة من القضايا المرتبطة بالآية الكريمة ويمكن أن تكون فى هيئة نقاطٍ على النحو الآتى :

أوّلاً : يجىء فى الآية الكريمة الختم نصيباً للقلوب والأسماع . وتجىء الغشاوة نصيبًا للأبصار . وهذا المعنى ذاته نجده فى هذه الآية الكريمة من سورة الجاثية[٣] قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتّخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون ﴾ .

ثانياً : جاء فى هذه الآية الكريمة ترتيب وسائل العلم والإيمان على هذا النّحو : القلوب . السّمع . الأبصار . والمعروف أنّ ترتيب هذه الوسائل فى القرآن الكريم ، بناءً على مقتضى المعنى ، لا يستقرّ على وتيرةٍ واحدة . فعلى سبيل المثال جاء ترتيب الوسائل

---

(١) حينما يكون معنى الماء العذب هو الّذى حُبس حتّى صفا وفارقه ما خالطه ، يكون الماء العذب بمعنى الماء الحلو وفق الاستعمال الشّائع مظهراً من مظاهر تطوّر الدّلالة .

(٢) الكشاف ١/١٢٦ وانظر البحر المحيط ١/٥٠

(٣) الآية ٢٣

فى آية سورة الجاثية السّابقة مخالفاً وعلى هذا النّحو : السمع . القلب . البصر . بينما جاء فى سورة الإسراء قوله تعالى[١] : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم . إنّ السّمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ وإنّ هذا التّرتيب بحاجةٍ منّا إلى أن نقف عنده مستقبلا .

ثالثاً : يلاحظ أن حرف الجرّ « على » الدّال على الاستعلاء يجيء مرّاتٍ ثلاثاً بعدد الوسائل الثّلاث ومع كلّ واحدةٍ منها . ولا يستغنى عنه فى المرّة الثّانية حيث يمكن الاستغناء عنه هنا بصفةٍ خاصّة . يقول الزّمخشرىّ معلّلا[٢] : « فإن قلت : أىّ فائدةٍ فى تكرير الجارّ فى قوله : وعلى سمعهم قلت : لو لم يكرّر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع فى تعديةٍ واحدة . وحين استجدّ للأسماع تعديةٌ على حدة كان أدلّ على شدّة الختم فى الموضعين » .

رابعاً : أُسْنِد الختم فى الآية الكريمة إلى الذّات العليّة ، وقد عرفنا فى أثناء تأمّلنا للآية الكريمة السّابقة أنّ الكافرين المصرّين على الكفر هم المسئولون وحدهم عن كون الإنذار وعدمه يستويان فى حقهم فهم الّذين بدّلوا نعمة الله كفراً وهم الّذين أحلّو قومهم دار البوار ، وهم الّذين لهم عذابٌ عظيم . إنّ الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرّة . قال تعالى[٣] : ﴿ إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّةٍ وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ . ﴿ ولا يظلم ربّك أحداً ﴾ ، قال تعالى[٤] : ﴿ وَوُضِع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مِمَّا فيه ويقولون يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها . ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحدا ﴾ فهؤلاء الكافرون المصرّون على الكفر قد زادهم الله تعالى ضلالاً بعد أن انصرفوا بقلوبهم عن حلاوة الإيمان وبرد اليقين وبأسماعهم عن دعوة الحقّ ، وبأبصارهم عن نور الهداية . وقد أسند الختم إلى الذّات العليّة قصد التّنبيه « على أن هذه الصّفة فى فرط تمكّنها وثبات قدمها كالشّىء الخِلْقىّ غير العرضىّ »[٥] .

---

(١) الآية ٣٦
(٢) الكشّاف ١/١٢٥ وانظر البحر المحيط ١/٤٨
(٣) سورة النّساء ٤٠
(٤) سورة الكهف ٤٩
(٥) الكشّاف ١/١٢٢

خامساً : للعلماء اجتهاداتٌ فى توحيد السّمع وجمع الأبصار . يقول القرطبىّ مثلاً[١] : « إن قال قائل : لم جمع الأبصار ووحّد السّمع ؟ قيل له : إنّما وحّده لأنّه مصدر يقع للقليل والكثير . يقال : سمعت الشّىء أسمعه سمعًا وسماعا . فالسّمع مصدر سمعت . والسّمع أيضاً اسمٌ للجارحة المسموع بها . سمّيت بالمصدر » ويقول الزّمخشرى[٢] فى توحيد السّمع : « ولك أن تقول : السّمع مصدرٌ فى أصله . والمصادر لا تجمع ، فلمح الأصل . يدلّ عليه جمع الأُذُن فى قوله[٣] : وفى آذاننا وقر ..... » .

سادسا : لقد جاء كلٌّ من لفظة « غشاوة » و « عذاب » منكّرة . يقول الزّمخشرىّ فى معنى التّنكير هنا[٤] : « ومعنى التّنكير أنّ على أبصارهم نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه النّاس ، وهو غطاء التّعامى عن آيات الله . ولهم من بين الآلام العظام نوعٌ عظيمٌ لا يعلم كنهه إلاّ الله . اللّٰهمّ أَجِرْنا من عذابك ولا تَبْلنا بسخطك يا واسع المغفرة » .

سابعاً : بعد أن بيّنت الآية الكريمة حال هؤلاء المصرّين على الكفر فى الدّنيا ، أخبرت بما يؤول إليه أمرهم فى الآخرة من العذاب العظيم « ولهم عذابٌ عظيم » وقد فهمنا معنى تنكير لفظة عذاب . ويقول أبو حيّان بشأن الجارّ والمجرور « لهم »[٥] : « ولمّا كان قد أعدّ لهم العذاب صيّر كأنّه ملكٌ لهم لازم » .

ثامناً : للمفسّرين كلامٌ عظيم فى الوقف أثناء التّلاوة على قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ ويجمل بنا أن نقف على بعض ما قالوا ، فإنّ فى ذلك إسعافاً على فهم معانى الآية الكريمة ومراميها . يقول مثلاً الإمام محمّد بن جرير الطّبرى[٦] : « وقوله وعلى أبصارهم غشاوة ، خبر مبتدأ بعد تمام الخبر عمّا ختم الله جلّ ثناؤه عليه من جوارح الكفّار الّذين مضت قصصهم . وذلك أنّ غشاوة مرفوعة بقوله : وعلى أبصارهم . فذلك دليلٌ على أنّه خبر مبتدأ ، وأنّ قوله : ختم الله على قلوبهم قد

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٦٥
(٢) الكشّاف ١/١٢٦
(٣) سورة فصّلت ٥
(٤) الكشّاف ١/١٢٦
(٥) البحر المحيط ١/٥٠
(٦) تفسير الطّبرى ١/٨٨

تناهى عند قوله : وعلى سمعهم . وذلك هو القراءة الصحيحة عندنا .... » ويقول ابن كثير[١] : « واعلم أنّ الوقف التّام على قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ وقوله : ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ . جملة تامّة . فإنّ الطّبع يكون على القلب وعلى السّمع . والغشاوة وهى الغطاء يكون على البصر كما قال السّدّى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عبّاس . وعن مرّة الهمدانىّ عن ابن مسعود . وعن أناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ » . ويقول أبو حيّان[٢] : « وقرأ الجمهور غِشاوةٌ بكسر الغين ورفع التّاء . وكانت هذه الجملة ابتدائيّة ليشمل الكلام الإسنادين إسناد الجملة الفعليّة وإسناد الجملة الابتدائية ، فيكون ذلك آكد . لأنّ الفعليّة تدلّ على التّجدّد والحدوث ، والاسميّة تدلّ على الثّبوت . وكان تقديم الفعليّة أَوْلى لأنّ فيها أنّ ذلك قد وقع وفرغ منه » .

تاسعاً : وقف العلماء مليّاً عند ترتيب الأعضاء الثّلاثة فى الآية الكريمة ، القلوب ، السّمع ، الأبصار . يقول القرطبىّ مثلا[٣] : « على قلوبهم ، فيه دليلٌ على فضل القلب على جميع الجوارح » ويقول أبو حيّان[٤] : « وتقديم القلوب على السّمع من باب التّقديم بالشّرف » .

وجاء بشأن السّمع والبصر قول القرطبىّ[٥] مثلا : « وعلى سمعهم ، استدلّ بها من فضّل السّمع على البصر لتقدّمه عليه . وقال تعالى[٦] : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ . وقال[٧] : ﴿ وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة ﴾ . قال : والسّمع يدرك به الجهات السّتّ ، وفى النّور والظّلمة . ولا يدرك بالبصر إلاّ من الجهة المقابلة ، وبواسطة من ضياء وشعاع .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦/١
(٢) البحر المحيط ٤٩/١
(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٦٣
(٤) البحر المحيط ٤٩/١
(٥) تفسير القرطبى ص ١٦٥
(٦) سورة الأنعام ٤٦ وتمام الآية : ﴿ وختم على قلوبكم مَنْ إلٰهٌ غيرُ الله يأتيكم به ، انظر كيف نصرّف الآيات ثمّ هم يصدفون ﴾ .
(٧) سورة الملك ٢٣

وقال أكثر المتكلّمين بتفضيل البصر على السّمع ، لأنّ السّمع لا يدرك به إلاّ الأصوات والكلام . والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلّها . قالوا : فلمّا كانت تعلّقاته أكثر كان أفضل . وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات السّتّ » .

عاشراً : فى ضوء ما ذكره العلماء فى حقّ هذه الجوارح ، نحن نودّ أن نتبيّن الحكمة فى ترتيب الجوارح الثّلاث وفق هذا النّسق فى مثل هذه الآية الكريمة ، ووفق غير هذا النّسق فى غير هذه الآية الكريمة . والحقيقة أنّنا بحاجةٍ إلى استعراض بعض آى الذكر الحكيم فى هذا الشأن وتبيين بعض الملابسات . فالمعروف أنّ الآيات الكريمات الّتى عرضت لهذه الجوارح كثيرة ، وسنقتصر على بعضها الّذى له علاقةٌ وثيقة بميدان حديثنا .

حينما نتساءل عن الوظيفة الرّئيسية لكلٍّ من الجوارح الثّلاث الّتى ذكرتها الآية الكريمة ، وهى القلب والسّمع والبصر ، فإنّا نستطيع أن نتبيّن الجواب من آى الذّكر الحكيم . إنّ وظيفة القلب الفقه والعقل . أمّا السّمع والبصر فإنّهما وظيفة كلٍّ من الأذن والعين . جاء فى سورة الأعراف[1] قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾ . وقولُه تعالى[2] : ﴿ والّذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبْصرون ﴾ وجاء فى سورة الحجّ[3] قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصدور ﴾ وجاء فى سورة يونس[4] قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تُسْمِع الصُّمّ ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تَهْدِى العُمْى ولو كانوا لا يُبْصرون . إنّ الله لا يظلم النّاس شيئاً

---

(١) الآية ١٧٩

(٢) سورة الأعراف ١٩٧ ، ١٩٨

(٣) الآية ٤٦

(٤) الآيات ٤٢ ــ ٤٤

ولٰكنّ النّاس أنفسهم يظلمون » .

وحينما نتساءل عن مدى سلطة الإنسان وسيطرته على هذه الجوارح الثّلاث فإنّا يصحّ أن نستنج ، استناداً إلى آى الذّكر الحكيم ، أنّ سلطة الإنسان على هذه الجوارح الثّلاث تسير من القوّة إلى الضّعف باطّراد وفق هذا التّرتيب . العين . السمع . القلب . فبما أنّ الإنسان يستطيع بعونٍ من الله وفضلٍ أن يتحكّم فى بصره ، فقد أمره جلّ وعلا أن يغضّ بصره عمّا حرّمه عليه بارئه جلّ وعلا . جاء فى سورة النّور[1] خطاباً للمؤمنين والمؤمنات قوله عزّ من قائل : ﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبيرٌ بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن مِنْ أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ..... ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى السّمع تبيّنّا أنّ الإنسان لا يستطيع أن يتحكّم فيه كما يستطيع أن يتحكّم فى بصره ، ولهذا يأمر الله تعالى المؤمنين إذا وجدوا أنفسهم مصادفةً مع الّذين يخوضون فى آياته جلّ وعلا ويكفرون بها ويستهزئون بألا يقعدوا مع الخائضين حتّى يخوضوا فى حديثٍ غيره . جاء فى سورة النّساء[2] قوله تعالى : ﴿ وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتّى يخوضوا فى حديثٍ غيرِه ، إنّكم إذا مِثْلُهُم[3] إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنّم جميعا ﴾ . وجاء فى سورة الأنعام[4] قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الّذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتّى يخوضوا فى حديثٍ غيره ، وإمّا ينسينّك الشّيطان فلا تقعد بعد الذّكرى مع القوم الظّالمين . وما على الّذين يتّقون من حسابهم من شيءٍ ولكن ذكرى لعلّهم يتّقون ﴾ .

ومن لطيف ما يلاحظ فى هذاالشأن أنّ الإنسان لو وضع فى أذنيه أنملتيه ، فإنّه يظلّ يسمع دويًّا . فهذا المتنبّى شاعر العربيّة ، يشير إلى هذه الحقيقة فى معرض حديثه عن حقيقة المجد وكون إحدى صوره أن يترك المرء فى هذه الحياة ذكراً حسناً وسمعةً طيبةً يشبه الدّوىّالّذى يسمعهمن يضع فى أذنيه أنامله العشر . يقول[5] :

---

(١) الآية ٣٠ ، ٣١ (٢)الآية ١٤٠

(٣) مِثلهم فى الإثم (٤) الآية ٦٨ ، ٦٩

(٥) ديوان أبى الطّيّب المتنبّى بشرح أبى البقاء العُكْبَرى ١٤٩/٢

وتركُكَ فى الدّنيا دويًّا كأنّما تداوَلَ سَمْعَ المرءِ أُنْمُلُهُ العَشْرُ

فإذا تحوّلنا إلى القلب تبيّنّا أنّه هو مستقرّ الهدى . وقد تبيّنّا فى أثناء دراستنا المتأمّلة للآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن الكتاب العزيز الهدى للمتّقين أنّ الهدى نوعان . النّوع الأوّل بمعنى التّنبيه والإرشاد ، وهذا النّوع يقوى عليه الرّسل وأتباعهم بفضل الله تعالى . والنّوع الثّانى بمعنى التّوفيق والتّأييد ، وهذا النّوع تفرّدت به الذّات العليّة . وإلى عدم استطاعة المرء أن يؤمن أو يكفر إلاّ بإرادته جلّ وعلا[1] أشار قوله تعالى من سورة الأنفال[2] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون ﴾ . وحينما أرادت الآية الكريمة السّادسة والثّلاثون من سورة الإسراء أن تنبّه إلى عظم مسئوليّة الإنسان رتّبت الجوارح الثلاث السّمع والبصر والفؤاد ، مُبْتَدِئةً بالسّمع الّذى ليس للإنسان سلطةٌ مباشرةٌ عليه ، ومُنْتهيةً بالفؤاد الّذى تكاد تنعدم سلطة المرء عليه . قال تعالى : ﴿ إنّ السَّمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا ﴾ .

وحينما نتساءل عن دور كلّ من هذه الجوارح الثّلاث وعمله ، فإنّا من الجائز أن نتبين أنّ كلاًّ من السّمع والبصر يقوم بدور الوسيلة أمّا القلب فإنّه يقوم بدور المستقرّ . ومن هنا يعبّر أحياناً عن القلب بأنّه الفؤاد والصّدر كما يعبّر عن العقل بالقلب . وسبق أن مرّ بنا هذا الكلام للقرطبىّ[3] : « القلب قد يعبّر عنه بالفؤاد والصّدر . قال الله تعالى : ﴿ كذلك لنثبّت به فؤادك ﴾ . وقال : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ . يعنى فى الموضعين قلبك . وقد يعبّر به عن العقل . قال الله تعالى :﴿ إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ ، أى عقل » .

ونستطيع أن نفهم أنّ لكلٍّ من الأذن والعين ، السّمع والبصر وظيفتين اثنتين تُبْنى ثانيتهما على أولاهما . أمّا الوظيفة الأولى للأذن أو السّمع فإنّه السّماع المجرّد الّذى يتساوى فيه كلُّ سامع من إنسانٍ أو حيوان . وإلى هذه المساواة أشارت الآية الكريمة

---

(١) تفسير الجلالين

(٢) الآية ٢٤

(٣) تفسير القرطبى ص ١٦٥

من سورة البقرة الّتى شبّهت الكافرين فى عدم فهمهم دعوة الحقّ وتقبّلِهِمْ لها بالأنعام الّتى تسمع صوت الرّاعى ولا تعى عنه شيئا . قال تعالى : (١) ﴿ ومَثَلُ الّذين كفروا كمثل الّذى يَنْعق بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً . صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾ وأمّا الوظيفة الثّانية للأذن أو السّمع فهى الوعى والتدبّر ، وهذه هى الوظيفة المهمّة والرّئيسية للأذن ، ولهذا نُعِتَتْ هذه الأذن فى القرآن الكريم بكونها واعية . قال تعالى(٢) : ﴿ إنّا لمّا طغا الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرةً وتعيها أذنٌ واعية ﴾ ويحتاج هذا النّوع من السّمع لاستحضار العقل واستجماع القلب . قال تعالى(٣) : ﴿ إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السّمع وهو شهيد ﴾ والمراد أنّه فى أثناء الاستماع حاضر القلب . إن من لم تكن تلك صفته فى أثناء الاستماع هو بمنزلة الأصم الّذى لا يسمع ، لأن وظيفة الأذن ليس السّماع مجرّداً ولكنّه السّماع الواعى . وقد جاء فى حقّ هذا النّوع من النّاس مثل قوله تعالى(٤) : ﴿ أفأنت تُسْمع الصّمّ أو تهدى العمى ومن كان فى ضلالٍ مبين ﴾ وقوله تعالى(٥) : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك . أفأنت تُسْمِع الصّمّ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ وقوله تعالى(٦) : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبْصرون ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى العين استطعنا أن نتبيّن أنّ لها كذلك وظيفتين . أمّا الوظيفة الأولى للعين فهى الإبصار المجرّد الذى يتساوى فيه كلُّ مُبْصِر ، من إنسانٍ أو حيوان . وأمّا الوظيفة الثّانية للعين فهى إبصار نور الهداية وإدراك نورالحقيقة . وهذه هى الوظيفة المهمّة والرّئيسية للعين . وبهذا يتبيّن إنّ العين بشأن الوظيفة الأولى تتعامل مع النّور الّذى تدركه كلّ عينين . أمّا بشأن الوظيفة الثانية المهمّة فإنّ العين تتعامل مع نور البصيرة والإيمان واليقين . وحينما لا يكون ثمّة بصيرة نيّرة ، يكون ثمّة عمًى حقيقى . فليس الأعمى حقيقةً هو الّذى لا يبصر نور السّراج بكلتا عينيه . ولكنّ الأعمى حقيقة هو الأعمى

---

(١) سورة البقرة ١٧١
(٢) سورة الحاقة ١١ ، ١٢
(٣) سورة ق ٣٧
(٤) سورة الزّخرف ٤٠
(٥) سورة يونس ٤٢
(٦) سورة الأعراف ١٩٨

البصيرة . وإلى هذه الحقيقة أشار مثل قوله تعالى[١] : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تَعْمى القلوب الّتى فى الصّدور ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ ومنهم من ينظر إليك . أفأنت تهدى العُمْى ولو كانوا لا يُبْصرون ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبْصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ .

ونحن حينما نتساءل : كيف تستطيع كلٌّ من الأذن والعين أن تقوم بوظيفتها الرّئيسية ؟ فإنّا نستطيع أن نتبيّن الجواب من آى الذّكر الحكيم . إنّ كلاً من الأذن والعين تستطيع أن تقوم بوظيفتها الرّئيسية حينما يربط عمل كلٍّ من الأذن والعين بالعمل الصّحيح للقلب أو الفؤاد أو العقل أو الصّدر . جاء فى آية سورة الحجّ مثلاً أنّ القلوب يعقل بها ، وكأنّ القلب الموطن الرّئيسىّ للعقل ، وأن القلوب يصيبها العمى ، بل إن عمى القلوب هو العمى الحقيقىّ لأنهّ عمى البصيرة . وحينما يصيب البصيرةَ العمى يكون الإنسان كالأنعام بل أضلّ سبيلاً بنصّ القرآن الكريم . قال تعالى[٤] : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور ﴾ ويُفْهم من الآية الكريمة أنّ عمى العينين ليس عمًى حقيقيّاً ما دامت البصيرة نيّرة ، كما يفهم من الآية الكريمة العلاقة بين العين والقلب الّذى فى الصّدر .

أمّا العلاقة بين الأذن والقلب فإنّا نتبيّنها من هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف . قال تعالى[٥] : ﴿ أوَ لم يَهْدِ لّلذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ ويفهم من هذه الآية الكريمة أنّ السّمع إنّما يقوم بوظيفته الصّحيحة حينما يقترن عمله بالعمل الصّحيح للقلب النيّر ، أى ذى البصيرة النيّرة . إنّ هذا الاقتران بالقلب المبصر المهتدى إن لم يتحقّق للسّمع ، فسيظلّ

---

(١) سورة الحج ٤٦
(٢) سورة يونس ٤٣
(٣) سورة الأعراف ١٧٩
(٤) سورة الحج ٤٦
(٥) الاية ١٠٠

عمل السّمع مقصوراً على المرحلة الأولى مرحلة السّماع المجرّد الّتى سبق أن عرفنا أنّها المرحلة الّتى يتساوى فيها الإنسان والحيوان .

وهكذا يتبيّن علاقة كلٍّ من الأذن والعين ، السّمع والبصر بالقلب أو بالعقل . وهذا المعنى يعمّقه مثل قوله تعالى[١] : ﴿ إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السّمع وهو شهيد ﴾ والمعنى أنّ فى ذلك المذكور فى السّورة الكريمة من ذى قبل لعظةً وعبرة لمن كان له عقلٌ أو استمع الوعظ وهو حاضرٌ بالقلب[٢] فنحن بصدد القلب المبصر وبصدد السّمع من صاحبه المنتفع بنعمة العقل .

وإذا كان العلماء قد ذهبوا إلى كون القلب قد يعبّر عنه بالفؤاد والصّدر ، وكون القلب محلّ العقل فى قول الأكثرين ، فإنّا نودّ أن نعّمق مثل قول القرطبىّ الّذى مرّ بنا[٣] : « لأنّ القلب محلّ العقل فى قول الأكثرين . والفؤاد محلّ القلب . والصّدر محلّ الفؤاد . والله أعلم » إنّ قوله تعالى عن الصّدور فى سورة الحج[٤] : ﴿ فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور ﴾ وقوله تعالى فى سورة العاديات[٥] : ﴿ وحُصّل ما فى الصدور ﴾ وفى غيرهما من آى الذّكر الحكيم يُفهم منه أنّ الصّدر محلّ القلب . فالصّدر أوسع من القلب وأرحب . وإنّ قوله ﷺ فى مثل هذا الحديث : أتاكم أهل اليمن هم أرقّ أفئدةً وألين قلوباً[٦] يصحّ أن يفهم منه أنّ ثمّة فرقاً طفيفاً بين القلب والفؤاد . فإذا كان قد روعى فى إطلاق لفظ القلب تقلّبه وسرعة الخواطر إليه وتردّدها عليه ، فإنّ فى إطلاق لفظ الفؤاد قد روعى تفؤُّد القلب وتوقّده وتحرّقه يقول ابن منظور[٧] : « والتّفؤُّد : التّوقّد . والفؤاد : القلب لتفؤّده وتوقّده ، مذكّر لا غير ، صرّح بذلك اللّحيانىّ ، يكون ذلك لنوع الإنسان وغيره مِنْ أنواع الحيوان الّذى له قلب » ويقول[٨] « والفؤاد القلب . وقيل : وسطه . وقيل : الفؤاد غشاء القلب . والقلب حبّته وسويداؤه ..... والجمع أفئدة . قال سيبويه : ولا نعلمه كُسّر على

---

(١) سورة ق ٣٧
(٢) انظر الجلالين مثلاً فى معنى الآية الكريمة
(٣) تفسير القرطبى ١٦٥
(٤) الآية ٤٦
(٥) الآية ١٠
(٦) لسان العرب « فأد »
(٧) نفسه « فأد »
(٨) نفسه « فأدا »

غير ذلك » وقال تعالى[١] : ﴿ وهو الّذى أنشأ لكم السّمع والأبصار والأفئدة قليلا مّا تشكرون ﴾ . وقال تعالى[٢] : ﴿ وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة قليلاً مّا تشكرون ﴾ . وقال تعالى[٣] ﴿ قل هو الّذى أنشأكم وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة قليلاً مّا تشكرون ﴾ .

وفى ضوء الفطنة إلى الفروق الطّفيفة بين القلب والفؤاد والصّدر ، نودّ أن نقف بشأن الفَرْق بين القلب والعقل وبشأن موطن العقل عند قول القرطبىّ[٤] السّابق : « لأنّ القلب محلّ العقل فى قول الأكثرين » يقول ابن منظور[٥] : « والعقل : التّثبت فى الأمور . والعقل : القلب ، والقلب العقل ، وسمّى العقل عقلاً لأنّه يَعْقِل صاحِبهُ عن التّورّط فى المهالك أى يحبسه . وقيل : العقل هو التمييز الّذى به يتميّز الإنسان من سائر الحيوان . ويقال : لفلانٍ قلبٌ عقول ، ولسانٌ سئول . وقلبٌ عقولٌ فَهِم . وعَقَل الشّىء يَعْقِلُهُ عَقْلاً : فَهِمه »« وقيل : العاقل الّذى يحبس نفسه ويردُّها عن هواها »[٦] .

إنّه فى ضوء ما يفهم من قول القرطبىّ « القلب محلّ العقل فى قول الأكثرين » من كون القلب ليس محلّ العقل فى قول بعض العلماء ، وفى ضوء معنى الحبس وكبح الجماح الّذى يُفْهم من لفظة العقل غالباً ، نستطيع أن نذهب إلى كون مكان العقل شركةً بين القلب من ناحية وبين الفكر من ناحيةٍ أخرى . فإذا كان الإنسان بحاجةٍ إلى العاطفة والشّعور والوجدان من أجل الانطلاق والاندفاع وكان ذلك من نصيب القلب أو الفؤاد ، فإنّه بحاجةٍ كذلك إلى كبح الجماح والتّعقّل ، وتلك وظيفة العقل الّذى يحتاج إلى كلٍّ من الفكر والعقل معاً . وبطبيعة الحال لا يستغنى القلب فى دفعه للإنسان عن العقل أو الفكر .

وبعد هذه الجولة الواسعة فى تدبّرنا لمتعلّقات الآية الكريمة السّابعة من سورة البقرة ، والّتى تتحدّث عن ختم الله تعالى على قلوب الّذين كفروا وسمعهم وأبصارهم ،

---

(١) سورة المؤمنون ٧٨
(٢) سورة السّجدة ٩
(٣) سورة الملك ٢٣
(٤) تفسير القرطبى ص ١٦٥
(٥) لسان العرب « عقل »
(٦) لسان العرب « عقل »

نستطيع أن ننتهى إلى أنّ ثمّة وسيلتين رئيسيتين لإدراك العلم من بين الحواسّ الخمس وهما السمع والبصر والأذن والعين ، وأنّ الأذن والسّمع يتقدّمان العين والبصر فى هذا المضمار غالباً بدليل تقدّم السّمع على البصر فى القرآن الكريم . والمعروف أنّ الأذن تتعامل مع الصّوت المسموع وأنّ العين تتعامل مع الشّىء المبصر . وأنّ ما تدركه كلٌّ من الأذن والعين يمرّ بالفكر أو بالعقل ، وفق ما هو مُدْركٌ ومفهوم من كون العقل شركةً بين الفكر والقلب ، وهذه المرحلة بمثابة مرحلة النّقد والتّصفية للمدركات بواسطة الجارحتين السّابقتين . وبناءً على حسن استعمال وسيلة النّقد والتّصفية أعنى الفكر أو العقل ، أو سوء الاستعمال ، يتشكّل نوع ما يستقرّ فى القلب أو فى الفؤاد أو فى الصّدر . فإن كان ثمّة إحسانٌ لاستعمال هذه النّعم كان من نصيب القلب نور الهداية الّذى يستقرّ فيه ، ومن ثمّ يقال إنّ البصيرة نيّرة ومبصرة ، لأنّ العين أحسنت نقل النّور الّذى استقرّ هداية فى القلب ، ولأنّ الأذن أحسنت نقل أحسن القول الّذى استقرّ هو الآخر هدايةً فى القلب . وبهذا يتبيّن التّعاون الكامل بين هذه الجوارح فى سبيل الوصول إلى هذه النّهاية الحميدة ، تلك الجوارح الّتى قامت بعملها خير قيام .

أمّا إذا أساءت كلٌّ من الأذن والعين عملهما وأساءت بقيّة الجوارح عملها هى الأخرى ، فإنّ مصير نور الهداية واليقين الطّرد والإبعاد ، كى يحلّ محلّ ذلك الظلام والفساد . وفى هذه الحال يكون كلٌّ من القلب وهو المستقرّ ، والعقل أو الفكر وهما مركز التّصفية والتّنقية ، والعين والأذن ، وهما وسيلتا نقل العلم ، قد عطّلت عن العمل الصّحيح ، وكأنّها قد ختم عليها . وإلى هذه الحال السّيّئة فى حقّ الكافرين أشارت الآية الكريمة السّابعة من السّورة الكريمة . ويتبيّن ممّا سبق أن القلب أهمّ الجوارح باعتباره المستقرّ ، ولهذا ابتدأت به الآية الكريمة ، تلا ذلك حديث الآية الكريمة عن السّمع ثمّ البصر ، وذلك على غرار ترتيب القرآن الكريم لهاتين الحاسّتين ، باعتبار السّمع يتقدّم فى الأهمية البصر . إنّ الكافرين الّذين عطّلوا عمل هذه الجوارح للدّرجة الّتى يصحّ أن يفهم معها أنّ ذلك بمثابة الخلقة الّتى فطروا عليها ، قد استحقّوا أن ينسب ذلك الختم فى حقهم إلى الذّات العليّة ، دليلاً على عدم رضاه جلّ وعلا عنهم ، وسخطه عليهم ، واستحقاقهم العذاب العظيم يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذابٌ عظيم ﴾ .

[٣]

المنـــافقون

الآيـات (٨ ــ ٢٠)

وَمِنَ ٱلنَّاسِ

مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

تحدّثت السّورة الكريمة ابتداءً عن المؤمنين المتّقين وبيّنت عدداً من نعوتهم ، وتحدّثت بعد ذلك عن الكافرين المعاندين ، وهؤلاء يخالفون المؤمنين المتّقين فى الصِّفات ، ومن ثمّ فالرّباط بين الموضوعين التّضادّ فى الصّفات . والمعروف أنّ التّضادّ أو التّقابل فى الصّفات ، من أهمّ وسائل التّرابط بين المعانى وتداعيها . ولمّا كان ثمّة فريقٌ ثالثٌ يجمع بخبثٍ ودهاء بين صفات الفريقين السّابقين هذا إلى كونه قد تأخّر وجوده زمناً عن الكافرين ، فقد تحدّثت السّورة الكريمة وأفاضت فى الحديث عن هذا الفريق الثالث المنافق ، الّذى يدّعى الإيمان والتّحلّى بصفات المؤمنين ، بينما هو يضمر الكفر . والمعروف أنّ النّفاق إنّما ظهر بعد هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة ، وبالتّحديد بعد نصر الله تعالى المؤمنين ببدرٍ وهم أذلّة[1] ، فخشى المنافقون إن هم لم يدّعوا الإسلام أن ينالهم من الأذى مثل ما نال المشركين ، ومن ثمّ قالوا بأفواههم ما ليس فى قلوبهم الممتلئة كفراً وحقداً على المؤمنين وحسداً على نعمه جلّ وعلا عليهم الّتى لا تُحصى . والمعروف كذلك أنّ حديث هذا القسم عن المنافقين مستفيض . فإذا كان حديث السّورة الكريمة عن المؤمنين المتّقين فى خمس آياتٍ كريمات وكان حديثها عن الكافرين فى آيتين كريمتين ، فإن حديث السّورة الكريمة عن المنافقين فى ثلاث عشرة آية[2] تقلّب فيها الكلام عن المنافقين على جوانبه المختلفة ومن زاوياه المتعدّدة . وحينما يكون حديث السّورة الكريمة عن الكافرين فى آيتين كريمتين فقط بينما يكون الحديث عن المنافقين فى ثلاث عشرة آية ، يكون ذلك دليلاً على خطر المنافقين على المجتمع المسلم ، وهو خطرٌ يعود أساساً إلى تغلغلهم فى أحشاء هذا المجتمع الّذى يتظاهرون بصفاته بينما هواهم وقلوبهم مع الكافرين أعداء الله تعالى . ولهذا كان عقاب المنافقين عظيماً وأليماً بسبب كذبهم . إنّهم بنصّ القرآن الكريم فى الدّرك الأسفل من النّار ، وحينما يجمع

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٧

(٢) تفسير الطّبرى ١/٩٠

القرآن الكريم بين الفريقين فى الذّكر يقدّم المنافقين دليلاً على الدّرك الأسفل من النّار الّذى هم فيه . قال تعالى[١] : ﴿ إنّ المنافقين فى الدّرك الأسفل من النّار ولن تجد لهم نصيرا ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ إنّ الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنّم جميعا ﴾ . وهذه هى أولى الآيات الكريمة .

الآيــة رقــم (٨)

قال تعالى : ﴿ ومن النّاس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ .

من فى قوله : ومن النّاس : للتّبعيض[٣] والنّاس اسم جمع لا واحد له من لفظه . ومرادفه أناسىّ جمع إنسان أو إنسىّ[٤] وأصل ناس أناس ، حذفت همزته تخفيفاً[٥] وحذفها مع لام التّعريف كاللّازم لا يكاد يقال الأناس[٦] ويقول ابن فارس فى أصل هذه المادّة[٧] : « الهمزة والنّون والسّين أصلٌ واحد ، وهو ظهور الشّىء ، وكلُّ شيءٍ خالف طريقة التّوحُّش . قالوا : الإنس خلاف الجنّ ، وسمّوا لظهورهم . يقال : آنستُ الشّىءَ إذا رأيته . قال الله تعالى : فإن آنستم منهم رشدا .... والأُنْسُ : أُنْسُ الإنسان بالشّىء إذا لم يستوحِشْ منه » وهذه الألف والنّون والسّين مادّته عند سيبويه والفرّاء رحمهما الله تعالى[٨] ويشهد لأصله إنسان وأناس وأناسِىّ وإنس . وسمّوا لظهورهم وأنّهم يؤنسون أى يبصرون كما سمّى الجنّ لاجتنانهم[٩] ونطق بهذا الأصل . قال تعالى : يوم ندعو كلّ أناسٍ بإمامهم . فمادّته ومادّة الإنس واحدة[١٠] .

والألف واللّام فى النّاس للجنس أو للعهد . فكأنّه قال : ومن الكفّار السّابق ذكرهم من يقول[١١]

---

(١) سورة النّساء ١٤٥ (٢) سورة النساء ١٤٠
(٣) البحر المحيط ١/٥٣ (٤) البحر المحيط ١/٥٢
(٥) الكشّاف ١/١٢٧ (٦) الكشاف ١/١٢٧ (٧) مقاييس اللّغة « أنس »
(٨) البحر المحيط ١/٥٢ (٩) الكشّاف ١/١٢٧
(١٠) البحر المحيط ١/٥٢ وانظر تفسير القرطبى ص ١٦٧ وتفسير الطّبرىّ ١/٩٠
(١١) البحر المحيط ١/٥٣ وانظر الكشّاف ١/١٢٨

قاعة بحث العلوم الشرعية
بمعهد الدراسات القرآنية
للبنات بمكة المكرمة
عام ١٤٢١ هـ

ومَنْ فى قوله من يقول ، من الأسماء الّتى لفظها مفرد مذكّر دائماً ، وتنطلق عليه فروع المفرد والمذكّر إذا كان معناها كذلك . فتارةً يراعى اللّفظ ، فيفرد ما يعود على مذكّر . وتارةً يراعى المعنى فيحمل عليه[١] ويرى العلماء أنّ البدء بالحمل على اللّفظ ثمّ على المعنى أَوْلى من الابتداء بالحمل على المعنى ثمّ يرجع إلى الحمل على اللّفظ[٢] وهكذا جاء فى القرآن أنّه إذا اجتمع اللّفظ والمعنى بدئ باللّفظ ثمّ أتبع بالحمل على المعنى . قال تعالى : ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنّى ألا فى الفتنة سقطوا . ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدّقَنّ الآية . ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحا[٣] وفى هذه الآية الكريمة روعى لفظ مَنْ « المفرد » فى القول : « ومن النّاس من يقول » . وروعى معنى مَنْ « الجمع » فى القول : ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ . يقول أبو حيّان[٤] : « وأُتِى بلفظ الجمع رعياً للمعنى إذ لو راعى لفظ مَنْ قال : آمنتُ » وجاء فى الجلالين[٥] « وما هم بمؤمنين ، روعى فيه معنى من وفى ضمير يقول لفظها » .

وما فى قوله : وما هم بمؤمنين حجازيّة . وأكثر لسان الحجاز جرّ الخبر بالباء . وجاء القرآن على الأكثر . وجاء فى النّصب فى القرآن فى قوله : ﴿ ما هذا بشرا . وما هنّ أمّهاتهم ﴾[٦] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ من النّاس منافقين ، يقولون بألسنتهم وبأفواههم وليس بقلوبهم ومن أعماقهم : آمنّا بالله واليوم الآخر . وإلى أمثال هؤلاء أشارت الآية الكريمة من سورة التّوبة[٧] : ﴿ وممّن حولكم مِن الأعراب منافقون ومِن أهل المدينة مردوا على النّفاق لا تَعْلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون إلى عذابٍ عظيم ﴾ .

ويلاحظ أنّ دهاء المنافقين ومكرهم ليس عليه من مزيد ، فهم يتناولون الإيمان من أقصى حدّيه ابتداءً وانتهاءً إذ يزعمون أنهم يؤمنون بالله تعالى ويؤمنون باليوم الآخر . ومعنى الإيمان بالله تعالى الإيمان بكلّ ما جاء من الله تعالى ابتداءً بالرّسول الكريم وبالقرآن

---

(١) البحر المحيط ١/٥٤
(٢) البحر المحيط ١/٥٤
(٣) البحر المحيط ١/٥٥
(٤) البحر المحيط ١/٥٤
(٥) وانظر البحر المحيط ١/٥٥ بشأن مراعاة المعنى فى « هم
(٦) البحر المحيط ١/٥٥
(٧) الآية ١٠١

العظيم الّذى أوحاه الله تعالى إليه . ومعنى الإيمان باليوم الآخر العمل من أجل ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود وفق ما جاء من الله تعالى . وما الّذى يمكن أن يطلب مِنْ أىّ مؤمن وراء الإيمان بالله وباليوم الآخر الّذى ينضوى تحته كلّ أنواع الإيمان ؟ لا يمكن أن يُطْلَبَ أىُّ شيءٍ وراء ذلك . وهذا هو الّذى يدّعيه المنافقون . ومن أقوى أدلّة الإصرار على الادّعاء تكرير حرف الباء فى القول « وباليوم الآخر » يقول الزّمخشرى[١] فى زعمهم وفى تكرير الباء : « أوهموا فى هذا المقال أنّهم اختاروا الإيمان من جانبيه واكتنفوه من قطريه وأحاطوا بأوّله وآخره . وفى تكرير الباء أنّهم ادّعوا كلَّ واحد من الإيمانين على صفة الصّحّة والاستحكام » . ويقول أبو حيّان[٢] : « وفى تكرير الباء دليـلٌ على مقصود كلّ ما دخلت عليه الباء بالإيمان » .

وتبادر الآية الكريمة إلى تكذيب أولئك المنافقين فوراً « وما هم بمؤمنين » وإذا كان المنافقون قد أشاروا إلى نوعى الإيمان اللّذين يندرج تحتهما كلّ أنواع الإيمان ، فإنّ هذا التّكذيب الفورىّ لهم « وما هم بمؤمنين » نافٍ لكلّ أنواع الإيمان الّتى ادّعاها المنافقون ، ويستوى فى ذلك النّوعان المصرّح بهما والأنواع المندرجة تحتهما . وحينما لا يكون ثمّة إيمان يكون ثمّة كفر . وحينما يكون ثمّة أظهارٌ للإيمان وإعلان ، وإخفاءٌ للكفر وسَتْر ، يكون ثمّة نفاق . فالنّفاق يزيد على الكفر بالكذب والخديعة والادّعاء والاستهزاء ، ومن هنا كان عقاب المنافق أشدّ من عذاب الكافر . والملاحظ زيادة الباء الدّالّة على التّوكيد فى الخبر وذلك فى القول « وما هم بمؤمنين »[٣] .

ومن أهمّ ما يلاحظ فى مجال المقارنة بين التّعبيرين فى ادعاء الإيمان على لسان المنافقين وفى نفيه ، أنّ ادّعاء المنافقين جاء منصبّاً على فعل الإيمان ومن هنا كانت الجملة فعليّة مرتبطاً بها الزّمن الماضى « آمنّا بالله وباليوم الآخر » أمّا نفى الذّات الإلـٰهيّة الإيمان عنهم فقد جاء منصبّاً على الإيمان المنفىّ نفياً مطلقاً ، ومن هنا كانت الجملة اسميّة لا علاقة لها بالزّمن من ناحية ، وتفيد النّفى المطلق من ناحية أخرى ، وقد أحسن كـلٌّ مـن

---

(١) الكشّاف ١/١٣٠ (٢) البحر المحيط ١/٥٥

(٣) انظر البحر المحيط ١/٥٥

الزّمخشرىّ وأبى حيان القول فى هذا المعنى. يقول الزّمخشرىّ[١] : « فإن قلت كيف طابق قوله : وما هم بمؤمنين ، قولهم : آمنّا بالله وباليوم الآخر ، والأوّل فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثّانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل قلت : القصد إلى إنكار ما ادّعوه ونفيه ، فَسُلِك فى ذلك طريقٌ أدّى إلى الغرض المطلوب ، وفيه من التّوكيد والمبالغة ما ليس فى غيره ، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفةً من طوائف المؤمنين لما علم من حالهم المنافية لحال الدّاخلين فى الإيمان . وإذا شهد عليهم بأنّهم فى أنفسهم على هذه الصّفة ، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفى ما انتحلوا من إثباته لأنفسهم على سبيل البتّ والقطع . ونحوه قوله تعالى : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النّار وما هم بخارجين منها ﴾ ، هو أبلغ من قولك وما يخرجون منه » ويقول أبو حيّان[٢] : « وإنّما زيدت الباء فى الخبر للتّأكيد . ولأجل التأكيد فى مبالغة نفى إيمانهم جاءت الجملة المنفيّة اسميّة مصدّرة بهُمْ ، وتسلّط النّفى على اسم الفاعل الّذى ليس مقيَّداً بزمان ، ليشمل النّفى جميع الأزمان ، إذ لو جاء اللّفظ منسحباً على اللّفظ المحكىّ الّذى هو آمنّا لكان وما آمنوا ، فكان يكون نفياً للإيمان الماضى . والمقصود أنّهم ليسوا متلبّسين بشىءٍ من الإيمان فى وقت مّا من الأوقات .... » ويقول الطّبرى[٣] : « وقوله : وما هم بمؤمنين يعنى بمصدّقين فيما يزعمون أنّهم به مصدّقون » ومعروفٌ أنّ زعيم المنافقين عبد الله بن أبىّ ابن سلول[٤] .

---

(١) الكشّاف ١/١٣٠

(٢) البحر المحيط ١/٥٥

(٣) تفسير الطّبرى ١/٩١

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١/٤٧

الآيــة رقــم (٩)

قال تعالى : ﴿ يخادعون الله والّذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

الخداع : قيل إظهار غير ما فى النّفس ، وأصله الإخفاء . ومنه سمّى البيت المفرد فى المنزل مُخدعا[١] لتستّر أهل صاحب المنزل فيه . ومنه الأخدعان وهما العِرْقان المستبطنان فى العنق . وسمّى الدّهر خادعاً لما يُخْفى من غوائله . وقيل : الخَدِع[٢] أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ، من قولهم : ضَبٌّ خادع وخَدِع ، إذا أمرّ الحارث ، وهو صائد الضّبّ يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثمّ خرج من بابٍ آخر . وهو راجع إلى معنى القول الأوّل . وقيل : أصله الفساد من قول الشّاعر :

أبيض اللّون لذيذٌ طعمه طيّب الرّيق إذ الرّيق خَدَع[٣]

أى فسد[٤] ويقول القرطبىّ[٥] : « وقال أهل اللّغة : أصل الخدع[٦] فى كلام العرب الفساد .... قلت : فيخادعون الله على هذا ، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرّياء ، وكذا جاء مفسّراً عن النّبىّ ﷺ » ويقول ابن فارس[٧] : « الخاء والدّال والعين ، أصلٌ واحد ، ذكر الخليل قياسه : قال الخليل : الإخداع إخفاء الشّىء . قال : وبذلك سمّيت الخِزانة المخدع . وعلى هذا الّذى ذكر الخليل يجرى الباب . فمنه : خدَعتُ الرّجل ختلتُه . ومنه : الحرب خُدَعة وخُدْعة[٨] ويقال خَدَع

---

(١) بتثليث الميم وهو بيتٌ داخل البيت الكبير والجمع مخادع .

(٢) القاموس « خدع » : « وضبٌّ خَدِع ككتف مراوغ وفى المثل : أخدع من ضبّ » .

(٣) القاموس « خدع » : « وخدع الرّيق يَبِسَ » وانظر تفسير القرطبى ص ١٧٠ ومعجم مقاييس اللّغة .

(٤) البحر المحيط ٥٢/١ (٥) تفسير القرطبىّ ص ١٧٠

(٦) الخدع بفتح الخاء والكسر (٧) معجم مقاييس اللّغة « خدع »

(٨) خدعة بضمّ الخاء وفتح الدّال بوزن هُمَزَة وخُدْعة بضم الخاء وسكون الدّال ويقال أيضاً خَدْعة بالفتح .

الرّيق فى الفم ، وذلك أنه يخفى فى الحلق ويغيب ..... والأخدع : عرقٌ فى سالفة العُنُق . وهو خفىّ . ورجلٌ مخدوع : قُطِع أَخْدَعُه .... » ويقول ابن منظور(١) : « وخادعه مخادعةً وخِداعاً وخدّعه واختدعه : خدعه . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ يخادعون الله ﴾ ؛ جاز بفاعل لغير اثنين لأنّ هذا المثال يقع كثيراً فى اللّغة للواحد نحو : عاقبت اللّصّ وطارقت النعل . قال الفارسىّ : قُرِىء يخادعون الله ويخدعون الله ؛ قال : والعرب تقول : خادعتُ فلاناًإذا كنت تروم خَدْعه وعلى هذا يوجّه قوله تعالى : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ ، معناه أنّهم يقدّرون فى أنفسهم أنّهم يخدعون الله ، والله هو الخادع لهم أى المجازى لهم جزاء خداعهم » ويقول(٢) « الخَدْع : إظهار خلاف ما تُخفيه » وإنّ الطّبرىّ ليرفض الرّأى القائل بأنّ يخادع بمعنى يخدع ، يقول رحمه الله تعالى(٣) : « .... قال بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب : إنّ ذلك حرف جاء بهذه الصّورة أعنى يخادع بصورة يفاعل وهو بمعنى يفعل ، فى حروفٍ أمثالها شاذّة من منطق العرب نظير قولهم : قاتلك الله بمعنى قتلك الله . وليس القول فى ذلك عندى كالّذى قال . بل ذلك من التّفاعل الّذى لا يكون إلاّ من اثنين كسائر ما يعرف من معنى يفاعِل ومفاعِل فى كلّ كلام العرب . وذلك أنّ المنافق يخادع الله جلّ ثناؤه بكذبه بلسانه على ما قد تقدم وصفه . والله تبارك اسمه خادعه بِخِذْلانه عن حسن البصيرة بما فيه نجاة نفسه فى آجل معاده كالّذى أخبر فى قوله : ﴿ ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنّما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نمْلى لهم ليزدادوا إثما ﴾ ، وبالمعنى الّذى أخبر أنه فاعلٌ به فى الآخرة بقوله : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ الآية » .

ونحن نرى رأى الطّبرىّ . فبعد أن نفت الآية الكريمة السّابقة عن المنافقين صفة الإيمان أثبتت لهم صفة النّفاق فى أبشع صورها . إنّهم لغبائهم وشقائهم وانبتات صلتهم بالذّات العليّة يخيّل إليهم أنّهم بادّعائهم أنّهم آمنوا بالله وباليوم الآخر يخفون حقيقة نفاقهم عن الذّات العليّة . وهب أنّهم استطاعوا أن يخادعوا المؤمنين ، والمعروف أنّ ربّ العزة قبل

---

(١) لسان العرب « خدع »
(٢) لسان العرب « خدع ».
(٣) تفسير الطّبرى ٩٢/١

نزول سورة التوبة الفاضحة للمنافقين ، لم يشأ جلّ وعلا أن يوقف المصطفى ﷺ على أعيان المنافقين وإن كان جلّ وعلا قد أرشده ﷺ إلى وسيلةٍ من أهمّ وسائل الكشف عن نواياهم وهى لحن القول ، بمعنى ما يتفلّت من ألسنتهم ، بوعيٍ منهم وبدون وعى ، من قولٍ ينحرفون به عن جهة الاستقامة ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة محمّد ﷺ[1] : ﴿ أم حسب الّذين فى قلوبهم مرضٌ أن لن يُخْرِج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ فكيف أباح هؤلاء الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم أن يظنّوا أنّ فى استطاعتهم أن يخادعوه جلّ وعلا عن أنفسهم ؟ . ألا يعلم هؤلاء أنّ الله يعلم سرّهم ونجواهم وأنّ الله علاّم الغيوب ؟ . ألا يعلم هؤلاء أنّ الله يعلم ما توسوس به نفس كلّ واحدٍ منهم وأنهّ جلّ وعلا أقرب إلى الواحد منهم من حبل الوريد ومِنْ أخدعيه ؟ وصدق الله تعالى إذ يقول فى محكم كتابه[2] : ﴿ فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور ﴾ .

وما دام وبال المخادعة عائداً على المنافقين وحدهم ، لأنّ مكاسبهم المادّية فى هذه الحياة مهما كانت فى الظّاهر كبيرة هى فى حقيقتها حقيرة ، فكلّ كسبٍ على حساب الإيمان واليقين خسارة فادحة ، فذلك معناه أنّ المنافقين لم يخدعوا فى الحقيقة إلاّ أنفسهم وذواتهم ، لأنّ مصيرهم الدّرك الأسفل من النّار إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً ويعتصموا بالله ويخلصوا لله تعالى وحده لا شريك له .

والعجيب فى أمر هؤلاء المنافقين أنّهم أصرّو على إغماض أعينهم عن كلّ دلائل الحقّ الممثّلة بقوّةٍ فى المصطفى ﷺ وهو بين ظهرانيْهم ، وفى القرآن الكريم الهدى للمتّقين الّذى تنزل آيُهُ وسوره تترى على أشرف الأنبياء والمرسلين . ودليلاً من الآية الكريمة على بلادة إحساس القوم وموت شعورهم هى تستعمل جملة « وما يشعرون » الّتى تنفى عنهم أقرب أنواع العلم تناولاً . « والشّعور علم الشّىء علم حسٍّ من الشّعِار[3] ومشاعر الإنسان حواسه . والمعنى أنّ لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس . وهم لتمادى غفلتهم

---

(١) الآية ٢٩ ، ٣٠ (٢) سورة الحج ٤٦

(٣) الشّعِار ككتاب : ما تحت الدّثار من اللّباس وهو يلى شَعَر الجسد ويُفْتح . القاموس .

كالّذى لا حِسَّ له »[١] ثمّ إنّ جملة يشعرون تجىء « بلفظ المضارع لا بلفظ الماضى ، لأنّ المضىّ يشعر بالانقطاع بخلاف المضارع فإنّه يشعر فى معرض الذّمّ أو المدح بالدّيمومة نحو زيدٌ يدعّ اليتيم وعمرو يقرى الضّيف »[٢] قال تعالى : ﴿ يخادعون الله والّذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

الآيــة رقــم (١٠)

قال تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون ﴾ .

بيّنت الآية الكريمة الأولى فى القِسمْ أنّ المنافقين يزعمون أنّهم آمنوا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين . وبيّنت الآية الكريمة الثّانية أنّهم فى حقيقتهم يخدعون الله والّذين آمنوا بزعمهم أنّهم مؤمنون ، ويغفل المنافقون عن كونهم إنّما يخادعون أنفسهم لأنّ وبال خداعهم عائدٌ إليهم . وتبيّن الآية الكريمة التّالية حقيقة الباعث لهم على الزّعم وعلى الخداع . إنّه أكبر مرض يمكن أن يُبْتلى به عبدٌ من عباد الله تعالى . ألا وهو مرض القلب وقد قال المصطفى ﷺ[٣] : « ألاَ وإنّ فى الجسد مضغةً إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كُلُّه وإذا فَسَدتْ فسد الجسد كلُّه ألا وهى القلب » قال تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون﴾ . ومن الواضح أنّ كلاً من الآيات الثّلاث تعرض لمعنىً قائم بذاته ويُبْنى عليه ما بعده . ففى الآية الأولى يتضح أنّ المنافقين ليسوا مؤمنين . وفى الآية الثّانية يتّضح سوء طوية القوم . وفى الآية الثالثة يتّضح الباعث للقوم على زعم الإيمان وتبييت الخداع . إنّه مرض القلب الّذى ازداد وأحلّ لهم الكذب .

معروفٌ أنّ مرض القلب بنوعيه المادّىّ والمعنوىّ من أخطر الأمراض وأصعبها علاجا . ومعروفٌ أنّ المراد بمرض القلوب هنا المرض المعنوىّ فى المقام الأول ، ولا ينفى ذلك مرض تلك القلوب من الوجهة الحسيّة ، ولكنّ هذا النّوع الحسّىّ من المرض ليس مقصوداً هنا . ومن العلماء من أحصى من الأمراض والأحوال الّتى وصفت بها فى القرآن

---

(١) الكشّاف ١/١٣٤ (٢) البحر المحيط ١/٥٨

(٣) صحيح البخارى ١/٢٠

الكريم قلوب أولئك الأقوام ومن لفّ لفّهم سبعةً وعشرين مرضاً وحالاً سيّئة . « وهى : الرّين والزَّيْغ والطّبع والصَّرف والضّيق والحرج والختم والأقفال والإشراب والرّعب والقساوة والإصرار وعدم التّطهير والنّفور والاشمئزاز والإنكار والشّكوك والعمى والإبعاد بصيغة اللّعن والتّأبّى والحميّة والبغضاء والغفلة والغمرة واللّهو والارتياب والنفاق . وظاهر آيات القرآن تدلّ على أنّ هذه الأمراض معانٍ تحصل فى القلب فتغلب عليه . وللقلب أمراضٌ غير هذه من الغِلّ والحقد والحسد ذكرها الله تعالى مضافةً إلى جملة الكفّار »[١] .

قال ابن فارس اللّغوىّ : المرض كلّ ما خرج به الإنسان عن حدّ الصّحّة[٢] وعن ابن عبّاس وابن مسعود وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى هذه الآية : فى قلوبهم مرض قال : شكّ . فزادهم الله مرضا قال : شكّا[٣] وعن ابن عبّاس قال : المرض : النّفاق[٤] .

وحينما نتساءل عن السّبب الّذى من أجله حلّ بقلوب القوم مرض النّفاق والرّيبة والشّكّ[٥] فإنّا نستطيع أن نتبيّن أنّ ذلك إنّما هو وليد كفرهم بنعم الله تعالى على غرار كفر كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم . وفى مقدّمة النّعم الّتى كفروها نعمة إرسال خاتم الأنبياء والمرسلين بين ظهرانَيْهم ، وإنزال أشرف الكتب السّماوية عليه ﷺ . إنّ موقف المنافقين من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد لا يختلف فى حقيقته عن موقف الكافرين الّذين أعلنوا كفرهم من ذى قبل . بمعنى أنّ المصطفى ﷺ لو لم ينصره الله تعالى هو والفئة المؤمنة نصراً مؤزراً حاسماً فى صراعه مع الكافرين وفى مقدّمتهم كفّار قريش الّذين نصر الله تعالى المؤمنين عليهم فى وقت كان المؤمنون فيه قلّةً وأذلّة ، لأظهر المناوئون للدّعوة من أهل يثرب كفرهم ولأعلنوه كما أعلنه كفّار مكّة وكلّ كافر حينما لا يخشى قوةً رادعة . وبما أنّ موقف المسلمين بدأ يتحوّل بالهجرة إلى المدينة المنوّرة من موقف

---

(١) البحر المحيط ١/٥٨ (٢) تفسير القرطبى ص ١٧٢

(٣) تفسير ابن كثير ١/٤٨ وانظر تفسير الطبرى ١/٩٤ والجلالين .

(٤) تفسير الطبرى ١/٩٤ (٥) تفسير الطّبرى ١/٩٤

الدّفاع إلى موقف الهجوم ، وبما أنّه ثبت أنّ المسلمين قادرون على القتال الّذى أذن الله تعالى لهم فيه ، وعلى خضد شوكة الكفر بعونٍ من الله تعالى وتوفيق ، وبما أنّ هوى المناوئين للدّعوة من أهل يثرب مع الكفّار ولكنّهم مغلوبون على أمرهم مقهورو الإرادة ، فقد كان من الطبيعىّ أن يوجد فى المدينة المنوّرة المنافقون بجوار المؤمنين المتّقين ، تماماً كما سبق وأن وجد فى مكّة المكرّمة الكافرون بجوار المؤمنين . إنّ المنافقين كافرون حقيقة ، وفرق بين الفريقين أنّ الكافرين كانوا يأنسون فى أنفسهم القدرة على القول والعمل معاً أو على القول الصّريح المعلن وحده . ومن هنا كان كفرهم معلنا . أمّا المنافقون فقد كانوا عاجزين عن القول والعمل معاً ، ومن هنا كان كفرهم مضمراً ، كى يأمنوا الكافرين أمثالهم ، وكان إيمانهم معلنا ، كى يأمنوا المسلمين على دمائهم وأهليهم وأموالهم .

والعجيب فى أمر هؤلاء المنافقين أنّهم لا يزدادون بالاقتراب من المصطفى ﷺ جسداً إلاّ ابتعاداً بقلوبهم ونفوسهم ، ولا يزدادون بالاستماع للقرآن الكريم يرتّله المصطفى ﷺ ترتيلا إلاّ نفوراً واستكبارا ، ولا يزدادون بالإصغاء إلى المصطفى ﷺ وهو يبيّن معنى ما أوحى الله تعالى إليه من قرآن كريم ويعلن ما أوحى الله تعالى إليه من سنّةٍ مطهّرة إلاّ صمماً على صمم وعمى بصيرة إلى عمى . وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة الّتى أشارت إلى هذه الحقائق إضافةً إلى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة التّوبة(١) ﴿ وإذا ما أنزلت سورةٌ فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيمانا . فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأمّا الّذين فى قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجْساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أَولا يَرَوْن أنّهم يُفْتنون فى كلّ عامٍ مّرةً أو مرّتين ثمّ لا يتوبون ولا هم يذّكّرون . وإذا ما أنزلت سورةٌ نظر بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم مِنْ أَحَدٍ ثمّ انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ وقولُه تعالى فى سورة محمّد ﷺ(٢) : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا . أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم . والّذين اهتدَوا

(١) الآيات ١٢٤ ـــ ١٢٧ (٢) الآية ١٦ ، ١٧

زادهم هُدًى وآتاهم تقواهم ﴾ .

وهكذا يتبين أنّه فى مقابل ازدياد المؤمنين إيماناً وهدًى وعلماً بنزول آى الذّكر الحكيم والاستماع إلى المصطفى ﷺ يزداد المنافقون مرضاً إلى مرض قلوبهم وعمىً إلى عمى أبصارهم وصمماً إلى صمم أسماعهم لقول الحقّ سماع تدّبر . وبما أنّ المنافقين يشتركون مع الكافرين فى الصّفات السّيّئة ، ويزيدون عليهم بأنّهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وبما أنّ الكافرين كما تبيّنا من ذى قبل ، مسئولون مسئوليّةً كاملة عن انصرافهم عن سواء السّبيل وإصرارهم على الضّلال ، فهذا معناه أنّ المنافقين هم كذلك مسئولون مسئوليّةً كاملة عن كلّ ما يقترفون من آثام وما يصيبهم من عذاب . وإذا كان الكافرون قد استحقّوا من ذى قبل العذاب العظيم ، قال تعالى فى حقّهم : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيم ﴾ فإنّ المنافقين يستحقّون هذا العذاب لمشاركتهم الكافرين فى صفاتهم ، ويزيدون على الكافرين بالنّفاق الّذى يستحقّون عليه عذاباً آخر ، ومن هنا كان عذاب المنافقين أليماً . فهذا العذاب أليمٌ إضافةً إلى كونه عظيما . وإنّ الزّيادة المعنويّة فى وصف عذاب المنافقين بكونه أليماً ، هى من جنس الزّيادة المصرّح بها فى الآية الكريمة من قبل وذلك فى القول : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليم ﴾ وقد أُرْدِفَتْ هاتان الزّيادتان بزيادة تبيين السّبب الّذى من أجله استحقّ المنافقون العذاب الأليم . إنّه الكذب الّذى ازدادوا بسببه سوءًا عن الكافرين . قال تعالى : ﴿ ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون ﴾ .

« قال أبو جعفر : والأليم هو الموجع ، ومعناه ولهم عذابٌ مؤلم . فصرف مؤلم إلى أليم ، كما يقال ضربٌ وجيع بمعنى موجع . والله بديع السّماوات والأرض بمعنى مبدع . ومنه قول عمرو بن معديكرب الزّبيدى :

أَمِنْ رَيْحانَةَ الدّاعى السّميع يؤرّقنى وأصحابى هجوع

بمعنى المسمع .... وإنّما الأليم صفةٌ للعذاب . كأنّه قال : ولهم عذابٌ مؤلم . وهو مأخوذٌ من الألم . والألم الوجع »[1]

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٩٥ وانظر تفسير القرطبى ١٧٢ والبحر المحيط ١/٥٣

والكذب الإخبار عن الشّيء على خلاف ماهو به . وهو قبيحٌ كلّه[١] وعلى غرار الحياة الطيّبة التى يصحّ أن تجمع للمؤمنين فى الأولى والآخرة ، بنصّ القرآن الكريم[٢] يصحّ أن يجمع للمنافقين الحياة غير الطيّبة فى الأولى والآخرة إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا . وممّا قيل فى هذا الشّأن[٣] : « ولهم عذابٌ أليمٌ بما يفنى عمّا يبقى . وقال الجنيد : علل القلوب من اتّباع الهوى . كما أنّ علل الجوارح من مرض البدن » قال تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون ﴾ .

الآيــة رقــم (١١)

قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون ﴾ .

من المعروف أنّ المنافقين يجمعون بين سوء المعتقد والقول والفعل إنّهم بنصّ القرآن الكريم كاذبون فى زعمهم أنّهم آمنوا بالله وباليوم الآخر . ومن ثمّ هم يكفرون بالنّبىّ ﷺ وما أنزل إليه من ربّه . ثمّ هم فى أقوالهم يخادعون الله تعالى والّذين آمنوا وفى الحقيقة إنّما يخدعون أنفسهم لأنّ وبال كذبهم عليهم . وحينما لا يؤمن المنافقون بالله تعالى وباليوم الآخر ، وحينما لا يعبدون الله تعالى حقّ العبادة ولا يحقّقون هذا الهدف الّذى خلقوا من أجله ، يكون معنى ذلك أنّ رحمة الله تعالى بعيدةٌ عنهم وغضب الله تعالى قريبٌ منهم ، وفى ذلك من الفساد فى الأرض ما فيه ، لأنّ الأذى غير مقصور عليهم والفتنة لم تُصِبْ أولئك الظّالمين خاصّة ، إنّما هى متعدّية إلى سواهم وشاملٌ أذاها غيرهم . وبتدبّرنا لآى الذّكر الحكيم يتبيّن أنّ ارتكاب الذّنوب والإصرار عليها ما حقّ للبركة ، موجبٌ لعذاب الله تعالى ، وسببٌ فى منع إرسال الغيث . جاء فى سورة المائدة[٤] قوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنو واتّقَوْا لكفّرنا عنهم سيّئاتهم ولأدخلناهم جنّات النّعيم . ولو أنّهم أقاموا التّوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

---

(١) الكشّاف ١/١٣٦ وانظر البحر المحيط ١/٦٠

(٢) الآية ٩٧ من سورة النّحل

(٣) تفسير القرطبى ص ١٧٢

(٤) الآية ٦٥ ، ٦٦

منهم أمّةٌ مقتصدةٌ وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون ﴾ . وجاء فى سورة الأعراف[١] قوله تعالى : ﴿ ولو أنّ أهل القُرَى آمنوا واتّقَوْ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السّماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أَوَ أمِنَ أهل القُرَى أن يأتيهم بأسُنا ضُحًى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ وجاء فى سورة الأنفال[٢] قوله تعالى : ﴿ واتّقوا فتنةً لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصةً واعلموا أنّ الله شديد العقاب ﴾ وجاء فى سورة هود[٣] على لسان هودٍ عليه السّلام قوله تعالى : ﴿ ويا قوم استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يُرْسِلِ السّماء عليكم مدراراً ويَزِدْكم قوّةً إلى قوّتكم ولا تتولّوا مجرمين ﴾ وجاء فى سورة نوح[٤] على لسان نوحٍ عليه السّلام قوله تعالى : ﴿ فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً . يُرْسِلِ السّماء عليكم مدرارا . ويُمْدِدْكُمْ بأمْوالٍ وبنين ويجعل لكم جنّاتٍ ويجعل لكم أنهارا ﴾ وجاء فى سورة الجن[٥] قوله : ﴿ وأن لو استقاموا على الطّريقة لأسقيناهم ماءً غدقا ﴾ .

ويأتى المنافقون على رأس قائمة المفسدين فى الأرض لأنّهم يظهرون الصّلاح ويبطنون الفساد . وقد عرفنا بعضاً من معتقداتهم وأقوالهم . فلنلق نظرةً أخرى على آى الذّكر الحكيم كى نتبيّن شيئاً من أفعالهم السّيّئة الّتى يزعمون أنّها صالحة بل إنّ الصّلاح مقصور عليها لأنّ هذه الصّفة خاصّةٌ بهم مقصورةٌ عليهم . جاء فى موالاة المنافقين اليهود وفى أيمانهم الكاذبة وفى استيلاء الشّيطان عليهم قولُه تعالى فى سورة المجادلة[٦] : ﴿ ألم تر إلى الّذين تولّوْا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعدّ الله لهم عذاباً شديدا ، إنّهم ساء ما كانوا يعملون . اتّخذوا أيمانهم جُنّةً فصدّوا عن سبيل الله فلهم عذابٌ مهين . لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك

---

(١) الآيات ٩٦ ــ ٩٩
(٢) الآية ٢٥
(٣) الآية ٥٢
(٤) الآيات ١٠ ــ ١٢
(٥) الآية ١٦
(٦) الآيات ١٤ ــ ١٩

أصحاب النّار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنّهم على شيء ، ألا إنّهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشّيطان فأنساهم ذكر الله . أولئك حزب الشّيطان . ألا إنّ حزب الشّيطان هم الخاسرون ﴾ وجاء فى المعنى ذاته قوله تعالى فى سورة الحشر[١] : ﴿ ألم تر إلى الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخْرِجْتُمْ لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد إنّهم لكاذبون . لئن أُخْرِجوا لا يَخْرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار ثمّ لا يُنْصرون . لأنتم أشدّ رهبةً فى صدورهم من الله ذلك بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ .

إنّ هذا بعضٌ من أعمال المنافقين السّيّئة الكثيرة الّتى لا يريدون بها إلاّ الإفساد فى الأرض . والعجيب فى الأمر أنّهم حينما يفاتَحون فى هذا الإفساد يزعمون بل يصرّون على زعمهم أنّ ما يعتقدون ويقولون ويعملون ليس أىَّ شيءآخر سوى الإصلاح . « الفساد ضدّ الصّلاح . وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدّها »[٢] « ونقيضه الصّلاح ، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النّافعة »[٣] .

ويصحّ أن نفهم أنّ القائلين للمنافقين « لاتفسدوا فى الأرض » فريقٌ من المؤمنين الطّامعين فى إيمان المنافقين إيماناً صادقاً المتعجّبين من إفساد المنافقين فى الأرض ، النّاهين لهم بإخلاص عن ارتكاب تلك الحماقات الّتى لا يمكن أن تصدر ممّن يتّفق مخبره مع ما يظهره من الايمان . يقول الطّبرى[٤] : « والإفساد فى الأرض العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنه وتضييع ما أمر الله بحفظه فذلك جملة الإفساد كما قال جلّ ثناؤه فى كتابه مخبراً عن قيل ملائكته : قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء . يعنون بذلك أتجعل فى الأرض مَنْ يعصيك ويخالف أمرك ؟. فكذلك صفة أهل النّفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربّهم وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكّهم فى دين الله الّذى لا يقبل من أحدٍ عملاً إلاّ بالتصديق

---

(١) الآيات ١١ ــ ١٣
(٢) تفسير القرطبىّ ١٧٦
(٣) الكشّاف ١٣٧/١
(٤) تفسير الطبرىّ ٩٨/١

به والإيقان بحقّيّته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشّكّ والرّيب ، وبمظاهرتهم أهل التّكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا . فذلك إفساد المنافقين فى أرض الله وهم يحسبون أنّهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها ، فلم يسقط الله جلّ ثناؤه عنهم عقوبته ولا خفّف عنهم أليم ما أعدّ من عقابه لأهل معصيته بحسبانهم أنّهم فيما أتَوْا من معاصى الله مصلحون ، بل أوجب لهم الدّرك الأسفل من ناره والأليم من عذابه والعار العاجل بسبّ الله إيّاهم وشتمه لهم فقال تعالى : ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

والملاحظ أنّ الآية الكريمة لا تستغنى عن القول « فى الأرض » ممّا يُفْهم معه أنّ هذا الجنس من النّاس فى أىّ بقعةٍ من الأرض حلّوا بها فإنّ الإفساد قرينٌ لهم . وهم إنّما يُنْهون عن الإفساد فى الأرض ممّا هو دليلٌ على طلب الإصلاح فى هذه الأرض ، ودليلٌ على كون هذه الأرض الّتى احتاجت وحدها ، إيجاداً ودحواً وتهيئةً لسُكْنى الإنسان أربعة أيّام من الأيّام السّتّة الّتى شاء الله تعالى أن يخلق فيها السّماوات والأرض ، دليلٌ على كون هذه الأرض لا يليق بها إلاّ الإصلاح لا الإفساد . ومِمّن يتوقّع الإصلاح فى الأرض إذا كان لا يتوقّع ولا يجئ من الإنسان الّذى كرّمه ربّه جلّ وعلا وحمله فى البرّ والبحر ورزقه من الطّيّبات وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلا ؟ يقول أبو حيّان[1] : « وليس ذكر الأرض لمجرّد التوكيد بل فى ذلك تنبيهٌ على أنّ هذ المحلّ الّذى فيه نشأتكم وتصرّفكم ومنه مادّة حياتكم وهو سترة أمواتكم جديرٌ ألاّ يُفْسَد فيه ، إذ محلّ الإصلاح لا ينبغى أن يجعل محلّ الإفساد . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ . وقال تعالى : ﴿ هو الّذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ . وقال تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أنّا صببنا الماء صبّا ﴾ . الآية . إلى غير ذلك من الآيات المنبّهة على الامتنان علينا بالأرض وما أَوْدَعَ

---

(١) البحر المحيط ١/٦٥

الله فيها من المنافع الّتى لا تكاد تُحْصى » .

وإذا كان النّهى قد جاء فى جملة فعليّة « لا تفسدوا » فإنّ جوابهم كان فى جملة اسميّة « وقابلوا النّهى عن الإفساد بقولهم : إنّما نحن مصلحون ، فأخرجوا الجواب جملةً اسميّةً لتدلّ على ثبوت الوصف لهم ، وأكّدوها بإنّما ، دلالةً على قوّة اتّصافهم بالإصلاح »[١] « ومعنى إنّما نحن مصلحون أنّ صفة المصلحين خلصت لهم وتمحّضت من غير شائبةِ قادحٍ فيها من وجه من وجوه الفساد »[٢] .

وبهذا يتبيّن أنّ من أهمّ مظاهر إفساد المنافقين فى الأرض عَمَلاً موالاتهم من حادّ الله ورسوله وقد قال تعالى فى هذين الفريقين فى سورة المجادلة[٣] : ﴿ إنّ الّذين يحادّون الله ورسوله أولئك فى الأذلّين . كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى إنّ الله قويٌّ عزيز . لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إنّ حزب الله هم المفلحون ﴾ .

وبهذا يتبيّن أن زعم المنافقين بأنّهم إنّما يريدون الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين والكافرين ، المؤمنين وأهل الكتاب[٤] هو عين الكذب والفساد . قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون ﴾ .

---

(١) البحر المحيط ١/٦٥

(٢) الكشّاف ١/١٣٨

(٣) الآيات ٢٠ ــ ٢١

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١/٥٠

الآيــة رقــم (١٢)

قال تعالى : ﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ .

زعم الّذين فى قلوبهم مرض وقد نهوا فى الآية الكريمة السّابقة عن الإفساد فى الأرض أنّهم مصلحون . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتبيّن أنّهم هم المفسدون فى الأرض حقّا . قال تعالى : ﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ . إنّ المتأمّل لتصرّفات المنافقين سواءٌ من حيث المعتقد أو القول أو العمل ، يتبيّن أنّها تدلّ فى أبسط الصّور على مرض قلوب هؤلاء المنافقين وعدم إيمانهم الحقّ بالله تعالى وبرسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه . لنأخذ على سبيل المثال موالاة المنافقين لليهود إخوانهم . إنه بنصّ القرآن الكريم لا يجتمع الإيمان الحقّ وموالاة اليهود أو النّصارى أو المشركين ، مهما كانت الادّعاءات أو الأسباب الّتى يتذرّع بها المنافقون . وإليك بعضَ آى الذّكر الحكيم فى هذا الشّأن . جاء فى سورة المائدة[١] قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم ، إنّ الله لا يهدى القوم الظّالمين . فترى الّذين فى قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا فى أنفسهم نادمين ﴾ وجاء فى سورة النّساء[٢] قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبينا . إنّ المنافقين فى الدّرك الأسفل من النّار ولن تجد لهم نصيرا . إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ . إلى غير ذلك من آياتٍ كريمات .

إنّ المنافقين حينما يسيئون المعتقد والقول والعمل يكونون المفسدين حقّا . وهذا

---

(١) الآية ٥١ ، ٥٢

(٢) الآيات ١٤٤ ــ ١٤٦

ما نصّت عليه الآية الكريمة فى أقوى صور التّعبير . إنّ المنافقين إذا كانوا قد نسبوا الإصلاح بل حصروه فيما يأتون من أقوال وأعمال ، ومن ثمّ كان تعبيرهم فى جملةٍ اسميّة تدلّ على ثبوت الوصف لهم وأكّدوها بإنّما ، فإنّ تكذيبهم فى هذه الآية الكريمة جاء هو الآخر فى جملة اسميّة مؤكّدة بأكثر من أداة . ﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ﴾ فنحن بصدد « ألا » وهى حرف تنبيه واستفتاح ، وتدلّ هنا على التّحقيق لتركّبها من الهمزة ولا . وهمزة الاستفهام إذا دخلت على النّفى أفادت التحقيق[١] ويقول أبو حيّان[٢] : « وعلامة ألا هذه الّتى هى تنبيهٌ واستفتاحٌ صحّة الكلام دونها » « واستفتحت الجملة بألا منبهّةً على ما يجئ بعدها لتكون الأسماع مصغيةً لهذا الإخبار الّذى جاء فى حقّهم »[٣] ويقول الزّمخشرى[٤] : « ألا مركّبة من همزة الاستفهام وحرف النّفى ، لإعطاء معنى التّنبيه على تحقّق ما بعدها . والاستفهام إذا دخل على النّفى أفاد تحقيقا كقوله : أليس ذلك بقادر . ولكونها فى هذا المنصب من التّحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلاّ مصدّرةً بنحو ما يتلقّى به القَسَم . وأختها الّتى هى أمَا من مقدّمات اليمين وطلائعها :

أما والّذى لا يعلم الغيب غيره ... [ويحيى العظام البيض وهى رميم

لقد كنت أختار الجوى طاوى الحشا ... محاذرةً من أن يقال لئيم]

أما والّذى أبكى وأضحك [والّذى ... أمات وأحيا والّذى أمره الأمر

لقد تركتنى أحْسُدُ الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذّعر]

وبعد شدّ الانتباه إلى الكلام الّذى سيقال بعد أداة التّنبيه والاستفتاح « ألا » تأتى الجملة الاسميّة « مؤكّدة بأنواعٍ من التّأكيد منها التّصدير بإنّ ، وبالمجئ بهُمْ ، وبالمجئ بالألف واللّام الّتى تفيد الحصر عند بعضهم »[٥] ويقول الزّمخشرى بشأن المبالغة

---

(١) انظر القاموس « ألا » والبحر المحيط ٦١/١ والجلالين .

(٢) البحر المحيط ٦٢/١ والمراد صحّة الكلام بعدها وتحقّقه .

(٣) البحر المحيط ٦٦/١

(٤) الكشاف ١٣٨/١ والزّيادة فى الموضعين بين المعقوفين من حاشية الحسين الجرجانى على الكشاف ١٣٨/١ ويضيف الجرجانى : « قوله : بنحو ما يتلقّى به القَسَم : كان واللّام وحرف النفى » .

(٥) البحر المحيط ٦٦/١

فى الآية الكريمة الّتى تردّ على المنافقين [١] : « رد الله ما ادّعوه من الانتظام فى جملة المصلحين أبلغ ردّ وأدلّه على سخطٍ عظيم . والمبالغة فيه من جهة الاستئناف . وما فى كلتا الكلمتين ألا وإنّ من التّأكيدين . وتعريف الخبر . وتوسيط الفصل » .

وما الحكمة من استعمال ولكن الّتى تفيد الاستدراك ؟ يقول أبو حيّان[٢] : « وجهة الاستدراك أنّهم لّما نهوا عن إيجاد مثل ما كانوا يتعاطونه من الإفساد فقابلوا ذلك بأنّهم مصلحون فى ذلك وأخبر الله عنهم أنّهم هم المفسدون كانوا حقيقين بأن يعلموا أنّ ذلك كما أخبر الله تعالى وأنّهم لا يدّعون أنّهم مصلحون . فاستدرك عليهم هذا المعنى الّذى فاتهم من عدم الشّعور بذلك » .

وبما أنّ الشّعور ذو علاقةٍ بالشِّعار وهو ما يلامس من الملابس الشّعر دليلاً على قرب تناوله لملازمته الجسد وملامسته فما الحكمة فى استعمال جملة « لا يشعرون » فى حقّ المنافقين الّتى تنفى عن القوم الفطنة والشّعور ؟ يقول أبو حيّان[٣] « جعلوا لدعواهم مل هو إفسادٌ إصلاحا ممّن انتفى عنه الشّعور وكأنهم من البهائم . لأنّ من كان متمكّناً مِنْ إدراك شيءٍ فأهمل الفكر والنّظر حتّى صار يحكم على الأشياء الفاسدة بأنّها صالحة فقد انتظم فى سلك من لا شعور له ولا إدراك أو من كابر وعاند فجعل الحقّ باطلاً فهو كذلك أيضا » .

قال تعالى : ﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ .

---

(١) الكشّاف ١٣٨/١ ويريد بالفصل الضّمير « هم » وانظر البحر المحيط ٦٦/١

(٢) البحر المحيط ٦٦/١

(٣) البحر المحيط ٦٦/١

الآيــة رقــم (١٣)

قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن النّاس قالوا أنؤمن كما آمن السّفهاء . ألا إنّهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ .

ادّعى المنافقون الإيمان فأكذبهم الله تعالى ووصفهم بأقبح الصّفات من مرض القلوب والخداع والكذب . وقد فطن لهم بعض المؤمنين الحريصين على إيمان القوم إيماناً صادقاً فنهوهم ابتداءً عن الإفساد فى الأرض . والمراد بالنّهى التّرك . والمعروف أنّ التّرك أسهل من الفعل . ومن هنا كان النّهى سابقا للأمر لأنّ النّهى سلبٌ والأمر إيجاب . وإنّ المؤمنين الحريصين على إيمان المنافقين لينهونهم عن الإفساد فى الأرض ، ذلك الإفساد الّذى ملأوا به فراغ أنفسهم من الإيمان الحقّ . فإذا ترك المنافقون الإفساد فى الأرض ، كانوا بحاجةٍ إلى ما يملأ الفراغ الّذى تركته الرّغبة فى الإفساد ، وكان ذلك فى هيئة أمر المؤمنين للمنافقين بأن يؤمنوا إيماناً صحيحاً كإيمان أصحاب المصطفى ﷺ من المهاجرين ومن الأنصار ، الأوس والخزرج ، وهما الحيّان اللّذان أظهر كافروهم الإيمان وأبطنوا الكفر وقد قهرهم الإسلام ، وهؤلاء هم المنافقون .

فما المراد بالسّفهاء فى الآية الكريمة ؟ أصل السّفه فى كلام العرب الخفّة والرّقّة . يقال : ثوبٌ سفيه إذا كان ردىء النّسج خفيفه أو كان بالياً رقيقا . وتسفّهت الرّيح الشّجر مالت به . قال ذو الرّمّة :

مَشيْن كما اهتزّت رماحٌ تسفّهت أعالِيَها مَرُّ الرّياح النّواسم

وتسفّهت الشّىء : استحقرته . والسّفه ضدّ الحلم[١] والسّفه : سخافة العقل وخفّة الحلم[٢] والسّفهاء جمع سفيه كالعلماء جمع عليم والحكماء جمع حكيم[٣] والحلماء

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٧٨ وانظر البحر المحيط ٦٢/١ .

(٢) الكشّاف ١٤٠/١

(٣) تفسير الطبرى ٩٩/١

جمع حليم[١] وهو جمع مطّرد فى فعيل الصّحيح الوصف المذكّر العاقل الّذى بينه وبين مؤنثة التّاء . والفعل منه سفه بكسر العين وضمّها وهو القياس لأجل اسم الفاعل . قالوا ونقيض السّفه الرُّشد وقيل الحكمة . يقال : رجلٌ حكيم وفى ضدّه سفيه . ونظير السّفه النّزق والطّيش[٢] والسّفيه الجاهل الضّعيف الرّأى القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضارّ[٣] .

إنّ المؤمنين المتّقين الّذين عزّ عليهم انحراف قومٍ من بنى جلدتهم عن الصّراط المستقيم رغم زعمهم أنّهم مؤمنون ، يطلبون من هؤلاء المنافقين أن يؤمنوا إيماناً صادقاً بالله تعالى وباليوم الآخر وبالرّسول الكريم وبالكتاب العظيم ، وذلك على غرار إيمان أصحاب المصطفى ﷺ من المهاجرين والأنصار الخليقين وحدهم بلفظ النّاس الّذين كرّمهم الله تعالى وأسبغ عليهم وافر نعمه وقاموا بما يجب عليهم شكراً لله تعالى على نعمه وآلائه الّتى لا تُحْصى ومن ثمّ هم حقّقوا الهدف الّذى خلقوا من أجله ، وذلك بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له . « والكاف فى موضع نصبٍ لأنّها نعْتٌ لمصدرٍ محذوف . أى إيماناً كإيمان النّاس[٤] وما من كما آمن النّاس مصدريّة ، التّقدير كإيمان النّاس[٥] ويرجّح أبو حيّان[٦] أن تكون ال فى النّاس للعهد رغم جواز كونها للجنس . يقول[٧] : « والألف واللاّم فى النّاس يحتمل أن تكون للجنس فكأنّه قال : الكاملون فى الإنسانيّة . أو عبّر بالنّاس عن المؤمنين لأنّهم هم النّاس فى الحقيقة ، ومن عداهم صورته صورة النّاس وليس من النّاس لعدم تمييزه كما قال الشّاعر :

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٠

(٢) البحر المحيط ١/٦٢ .

(٣) تفسير الطبرى ١/٩٩

(٤) تفسير القرطبى ص ١٧٨ وانظر البحر المحيط ١/٦٦

(٥) البحر المحيط ١/٦٧

(٦) البحر المحجيط ١/٦٧ وانظر الكشّاف ١/١٣٩

(٧) البحر المحيط ١/٦٧

ليس من النّاس ولكنّه يحسبه النّاس من النّاس

ويحتمل أن تكون الألف واللاّم للعهد ويعنى به رسول الله ﷺ وأصحابه . قاله ابن عبّاس ..... والأَوْلى حملها على العهد ، وأن يراد به من سبق إيمانه قبل قول ذلك لهم فيكون حوالةً على من سبق إيمانه لأنّهم معلومون معهودون عند المخاطبين بالأمر بالإيمان » .

لقد لمس المؤمنون بدعوة المنافقين إلى الإيمان الحقّ الزّناد الّذى فجّر دخائل نفوس المنافقين الّذين كانوا يزعمون الإيمان على حقيقتهم . فهاهم أولاء يردّون على المؤمنين بعنفٍ وطيش للدّرجة الّتى لا يفطن معها المنافقون إلى كونهم إنّما يسيئون ابتداءً للّذين يخاطبونهم من المؤمنين الغيورين الحريصين على ما ينفع المنافقين بإرشادهم إلى الإيمان الصّحيح . إنّ المنافقين ينزّلون المؤمنين إيماناً صحيحاً ، وفيهم الّذين يخاطبونهم ، منزلة السّفهاء ﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السّفهاء ﴾ ؟ يعنون أصحاب النّبىّ ﷺ(١) .

و لم يقف سفه المنافقين عند وصفهم المؤمنين بالصّفة الّتى لا تصحّ إلاّ فى حقّ المنافقين ولا تنطبق إلاّ عليهم بنصّ القرآن الكريم ألا وهى صفة السّفه بمعنى الخفّة والطّيش والنّزق والحميّة الجاهلية ، إنّما يتجاوزون ذلك ، دون فطنةٍ منهم ولا علم ، تأكيداً لسفههم وجهلهم ، إلى تكذيب أنفسهم وهم الّذين زعموا من ذى قبل أنّهم آمنوا بالله وباليوم الآخر فأكذبهم الله تعالى . إنّهم يعترفون الآن بما وصفهم به القرآن الكريم من الكذب ، وهاهم أولاء يصفون المؤمنين الّذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر وبكلّ ما بين هاتين الدّرجتين المتباعدتين من أنواع الإيمان ، بأنهم السّفهاء ، والمعروف أنّ المنافقين قد زعموا من قبل بأنّهم مؤمنون وبأنهم تنطبق عليهم كلّ صفات الصّادق الإيمان . فإذا وصف المنافقون أصحاب تلك النّعوت بالسّفه ، فذلك معناه أنّهم إنّما يصفون أنفسهم بلسان الحال بهذه الصّفات ، ويتحوّل القرآن الكريم كى يصفهم بلسان المقال بتلك الخصال . قال تعالى : ﴿ ألا إنّهم هم السّفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ .

لقد طلب المؤمنون من المنافقين أن يكون إيمانهم مشابهاً لإيمان أصحاب المصطفى

---

(١) تفسير الطّبرى ١/٩٩

ﷺ . وكان ردّ المنافقين على غرار طلب المؤمنين ، فهاهم أولاء يستنكرون أن يكون إيمانهم مشابهاً لإيمان السّفهاء حَسَب زعمهم . « والألف واللاّم فى السّفهاء للعهد . فيعنى به الصّحابة . قاله ابن عبّاس »[1] .

وإنّه على غرار ردّ القرآن الكريم على زعمهم السّابق بأنّهم مصلحون وذلك بابتداء الرّد بأداة التّنبيه والاستفتاح « ألا » مِنْ أجل شدّ الانتباه إلى ما سوف يقال ، يكون الرّدّ هنا على اتّهامهم المؤمنين بالسّفه . ﴿ ألا إنّهم هم السّفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ وما قيل عن أنواع التأكيد هنالك المستفاد من ألا ، و إنّ واسم الضّمير المنفصل هم ، هذا إلى تعريف الخبر ، يقال هنا .

وممّا لفت انتباه العلماء الفرقُ بين التّذييلين فى الآيتين الكريمتين . لقد ذيّلت الآية الأولى بالقول ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ وذيلت هذه الآية بالقول : ﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ ومن هؤلاء العلماء الزّمخشرىّ وأبو حيّان . وممّا لوحظ من فرقٍ بين التّذييلين أنّ نفى الشّعور عن المنافقين ، والمراد به الفطنة والإحساس ، جاء فى الآية الأولى عقيب الأعمال الصّبيانية الّتى قام بها المنافقون والّتى لا يمكن أن يغفل عنها أقل النّاس إحساساً وأبسطهم شعوراً والّتى لا يمكن أن يتورّط فيها لقرب تناولها إلاّ من فقد أقلّ كميّات الشّعور والإحساس . أما نفى العلم عن المنافقين فقد وطّىء له بذكر لفظ السّفهاء ، بمعنى الجهّال ، مرّتين اثنتين ، ومن أسباب الجهل بمعنى السّفه عدم العلم . ولمّا كان المنافقون فى حديثهم عن المؤمنين المتّقين ووصفهم بأقبح الصّفات الّتى لا يستحقّها الاّ المنافقون أنفسهم ، إنّما يهرفون بما لا يعرفون ، ويخوضون فيما يجهلون ، ويتفوّهون بما ينبىء عن جهلهم المطبق وغبائهم المتمكّن وسفههم المستحكم ، لكلّ ذلك ختم الحديث فى الآية الكريمة بنفى العلم عن المنافقين إشعاراً بعمق غور المعانى الّتى يخوض فيها المنافقون وإعلاماً ببعدها عن متناول أيديهم . يقول أبو حيّان[2] فى هذا الشّأن مستفيداً من الزّمخشرىّ فى الكشّاف : « والاستدراك الّذى دلّت عليه لكن فى

---

(١) البحر المحيط ٦٧/١

(٢) البحر المحيط ٦٨/١

قوله : ﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ مثله فى قوله تعالى : ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ . وإنما قال هناك : لا يشعرون ، وهنا : لا يعلمون لأنّ المثبت لهم هناك هو الإفساد ، وهو ممّا يدرك بأدنى تأمّل لأنّه من المحسوسات الّتى لا تحتاج إلى فكرٍ كثير . فنفى عنهم ما يدرك بالمشاعر وهى الحواسّ مبالغةً فى تجهيلهم ، وهو أنّ الشّعور الّذى قد يثبت للبهائم منفيٌّ عنهم . والمثبت هنا هو السّفه ، والمصدّر به هو الأمر بالإيمان ، وذلك ممّا يحتاج إلى إمعان فكرٍ واستدلالٍ ونظرٍ تامّ يُفْضى إلى الإيمان والتّصديق . ولم يقع منهم المأمور به ، فناسب ذلك نفى العلم عنهم ، ولأنّ السّفه هو خفة العقل والجهل بالمأمور به . قال السّموأل :

نخاف أن تسفه أحلامنا فنجهل الجهل مع الجاهل

والعلم نقيض الجهل فقابله بقوله : لا يعلمون . لأنّ عدم العلم بالشّىء جهلٌ به » ويقول الطّبرى فى معنى تعقيب الآية الكريمة[1] : ﴿ ألا إنّهم هم السّفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ . قال أبو جعفر : وهذا خبرٌ من الله تعالى عن المنافقين الّذين تقدّم نعته[2] لهم ووصفه إيّاهم بما وصفهم به من الشّكّ والتّكذيب أنّهم هم الجهّال فى أديانهم ، الضّعفاء الآراء فى اعتقاداتهم واختياراتهم الّتى اختاروها لأنفسهم من الشّكّ والرّيب فى أمر الله وأمر رسوله وأمر نبوّته وفيما جاء به من عند الله وأمر البعث لإساءتهم إلى أنفسهم بما أتَوْا من ذلك وهم يحسبون أنّهم إليها يحسنون ، وذلك هو عين السَّفَه لأنّ السّفيه إنّما يفسد من حيث يرى أنّه يصلح ويضيّع من حيث يرى أنّه يحفظ . فكذلك المنافق يعصى ربّه من حيث يرى أنّه يطيعه ويكفر به من حيث يرى أنّه يؤمن به ويسئ إلى نفسه من حيث يحسب أنّه يُحسن إليها كما وَصَفَهُمْ بِهِ رَبُّنا جلّ ذكره فقال : ﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ . وقال : ألا إنّهم هم السفهاء ، دون

---

(١) تفسير الطبرى ١/١٠٠

(٢) يفهم من كلام الخليل بن أحمد الفراهيدى إمام العربيّة أنّ الوصف يكون فى الحسن والقبيح أمّا النّعت فلا يكون إلاّ فى الحسن وَحْدَه . جاء فى الصّاحبىّ لابن فارس ص ٩٨ « وذُكِر عن الخليل أنّ النّعت لا يكون إلاّ فى محمود وأنّ الوصف قد يكون فيه وفى غيره » وجاء ص ٤٤٨ « قال [الخليل] والنّعت وصف الشّىء بما فيه من حسن ، إلاّ أن يتكلّف متكلّف فيقول : هذا نعت سوء . فأمّا العرب العاربة فإنّها تقول للشّىء المستكمل نعت يردون به التّتمّة » ويبدو أنّ القول ما قال الخليل .

المؤمنين المصدّقين بالله وبكتابه وبرسوله وثوابه وعقابه . ولكن لا يعلمون . وكذلك كان ابن عبّاس يتأوّل هذه الآية » قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن النّاس قالوا أنؤمن كما آمن السّفهاء ألا إنّهم هم السّفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ .

الآيــة رقــم (١٤)

قال تعالى : ﴿ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون ﴾ .

سبب النّزول :

روى أنّ عبد الله بن أبيّ وأصحابه خرجوا ذات يومٍ فاستقبلهم نفرٌ مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله : انظروا كيف أردّ هؤلاء السّفهاء عنكم . فأخذ بيد أبى بكرٍ فقال : مرحباً بالصّدّيق سيّد بنىٰ تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله . ثمّ أخذ بيد عمر فقال : مرحباً بسيّد بنى عدىّ الفاروق القوىّ فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله . ثمّ أخذ بيد على فقال : مرحباً بابن عمّ رسول الله وختنه سيّد بنى هاشم ما خلا رسول الله . ثمّ افترقوا . فقال لأصحابه : كيف رأيتمونى فعلت فأثنوا عليه خيراً فنزلت[١] .

ونستطيع أن نفهم أنّ عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين ، يعتبر فى مثل هذ الموقف رمزاً لسواه من المنافقين الّذين كانوا آنذاك شديدى الشّوكة .

اللّقاء : استقبال الشّخص قريباً منه . والفعل منه لَقِىَ يَلْقَىَ . وقد يقال لاقى . وهو فاعَلَ بمعنى الفعل المجرّد . وسمع يَلَقَىَ أربعة عشر مصدراً[٢] .

والخلوّ : الانفراد . خلا به أى انفرد[٣] وخلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه[٤] وإن

---

(١) الكشاف ١٤١/١ وانظر أسباب النّزول للنّيسابورى ص ١٣

(٢) البحر المحيط ٦٢/١ وانظر الكشّاف ١٤١/١

(٣) البحر المحيط ٦٢/١ (٤) الكشّاف ١٤١/١

قيل : لم وُصِلَتْ خَلَوْا بإلى وعُرْفها أن توصل بالباء ؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا[١] وخلصوا إلى شياطينهم . فضمّن خَلَوا معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدلّ على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به[٢] .

والشّياطين جمع شيطان على التّكسير[٣] ولفظ الشّيطنة معناه البُعْد عن الإيمان والخير[٤] والشّيطان فيعال عن البصريّين ، فنونه أصليّة ، مِنْ شطن أى بعد . واسم الفاعل شاطن .... ووزنه فعلان عند الكوفيّين ، ونونه زائدة من شاط يشيط إذا هلك[٥] والشّيطان كلّ متمرّد من الجنّ والإنس والدّوابّ . قاله ابن عبّاس . وأنثاه شيطانة[٦] .

واختلف المفسّرون فى المراد بالشّياطين هنا . فقال ابن عبّاس والسّدّى : هم رؤساء الكفر[٧] جاء فى تفسير الطّبرىّ[٨] : « .... عن ابن عبّاس .... عن ابن مسعود وعن ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ : وإذا خلوا إلى شياطينهم . أمّا شياطينهم فهم رءوسهم فى الكفر » .

والهزء : السّخرية واللّعب . يقال : هزئ به واستهزأ[٩] والاستهزاء السّخرية والاستخفاف . وأصل الباب الخفّة من الهزء وهو القتل السّريع[١٠] يقال هَزِىءَ واستهزأ إذا سَخِر[١١] وعليه يكون استهزأ بمعنى الفعل المجرّد ، تقول هَزِئتُ به واستهزأت بمعنًى واحد . مثل استعجب بمعنى عجب ، وهو أحد المعانى الّتى جاءت لها استفعل[١٢] عن ابن عبّاس : قالوا إنّما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمّد ﷺ[١٣] .

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٧٩ (٢) تفسير ابن كثير ٥١/١

(٣) تفسير القرطبى ص ١٧٩ وانظر البحر المحيط ٦٢/١

(٤) تفسير القرطبى ص ١٨٠ (٥) البحر المحيط ٦٢/١

(٦) البحر المحيط ٦٢/١

(٧) انظر تفسير القرطبى ص ١٧٩ وتفسير ابن كثير ٥١/١ والبحر المحيط ٦٩/١ وتفسير الطبرى ١٠١/١

(٨) ١٠١/١ (٩) تفسير القرطبى ص ١٨٠

(١٠) الكشّاف ١٤٣/١ (١١) معجم مقاييس اللّغة « هزأ »

(١٢) البحر المحيط ٦٣/١ (١٣) تفسير الطبرى ١٠٢/١

ولأبى حيّان كلامٌ حسن فى حقّ مع يقول[١] : « مع اسمٌ معناه الصّحبة اللاّئقة بالمذكور .... ويستعمل ظرف مكان فيقع خبراً عن الجثّة والأحداث . وإذا أُفْرِد نوّن مفتوحا .... وأكثر استعمال معاً حال نحو جميعاً ، وهى أخصّ من جميع ؛ لأنّه تشرك فى الزّمان نصّاً وجميع تحتمله . وقد سأل أحمد بن يحيى أحمد بن قادم عن الفرق بين قام عبد الله وزيد معاً وقام عبد الله وزيدٌ جميعا . قال : فلم يزل يركض فيها إلى اللّيل . وفرّق ابن يحيى بأنّ جميعًا يكون القيام فى وقتين وفى وقتٍ واحد . وأمّا إذا قلت معًا فيكون فى وقتٍ واحد » .

إنّ ثمّة تشابهاً إلى حدٍّ مّا بين ادّعاء المنافقين هنا وبين ادّعائهم فى أولى آيات القسم أنّهم آمنوا بالله واليوم الآخر . ووراء ذلك ثمّة فروق بين الموقفين وزيادات تتعلّق بثانيهما .

إنّ المنافقين يزعمون فى الموقفين أنّهم آمنوا . وفى الموقف الثّانى هم يرسلون القول «آمنّا» ولا يقيّدونه بالإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر ، كى يشمل كلّ أنواع الإيمان . وفى هذا الموقف إنّما يقول المنافقون «آمنّا» حينما يلقون الّذين آمنوا . ويبدو أنّ المنافقين إنّما يرسلون التّعبير المعتاد « آمنّا » دون اقترانه بالتّأكيدات الّتى اعتادوا عليها ، لكثرة وروده على ألسنتهم كلَّ مرّةٍ يلقون فيها واحدًا من المؤمنين أو أكثر من واحد . وكأنّهم وهم الّذين ينطلقون فى أقوالهم من الموقف الّذى ينطبق فى حقّه المثل : كاد المريب أن يقول خذونى ، قد أحسّوا ، على غير عادتهم ، أنّ كذبهم وادّعاءهم الإيمان لا يمكن أن يمتد إلى غير غاية أو يسير إلى غير نهاية ، فلابدّ من أن يكون كثيرٌ من المؤمنين قد أحسّ فى أعماقه أنّ المنافقين كاذبون ، خاصّةً وأنّهم حينما يقال لهم آمنوا كما آمن النّاس لا يريدون ، وهم السّفهاء ، أن يؤمنوا كما آمن المؤمنون المتّقون من أصحاب المصطفى ﷺ ، إنّهم يقولون ذلك علانيةً ويصرّون عليه . ثمّ إنّ هذا التّعبير التّقليدىّ الّذى يجرى على ألسنة المنافقين بسببٍ وبدون سبب لمجرّد لقائهم المؤمنين قائلين « آمنّا » إنّما تقوله ألسنة المنافقين وليس نابعاً من قلوبهم وليس صادراً من أعماقهم ، لذا كان تعبيرهم التقليدىّ البارد

---

(١) البحر المحيط ٦٢/١